بسم الله الرحمن الرحيم

الاتجاهات الفكرية والحضارية
فى القرنين الثانى والثالث الهجريين
وأثرها فى الشعر

أستاذ دكتور
عبد الله حسين على سليمان

الاتجاهات الفكرية والحضارية
في القرنين الثاني والثالث الهجريين
وأثرها في الشعر العربي

(١)

الحياة الدينية في القرنين الثاني والثالث وأثرها في الشعر :

بزغت شمس الإسلام فكانت مشرق النور والأمل ، وكانت نبعا فياضا من منابع العقيدة والروح والفكر ... انبثق من قلب الجزيرة العربية وسرعان ما تحول هذا النبع الصافى إلى بحر زاخر يموج بالقوة والحياة ، فلقد أمد الإسلام الإنسانية بروح جديد لم يعرف التاريخ له مثيلاً . (١)

ولم يمض قرن واحد على وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه حتى كان الإسلام قد امتد من المحيط الأطلسى فى الغرب إلى الهند وحدود الصين فى الشرق ، ومن بحر خوارزم فى الشمال إلى أعلى شلالات النيل فى الجنوب مكتسحاً أمامه كل تحركات الفرس والروم فى محاولاتهما إيقاف مده الزاحف .

وأصبح للإسلام بحق امبراطورية عظمى تقف شامخة على امتداد التاريخ الإنسانى . ولم تكن هذه الدولة العظمى تعتمد فى نشر عقيدتها على القهر والضغط ، بل إن المسلمين بحق قد أطلقوا حرية الدين لرعاياهم على اختلاف طوائفهم ونحلهم فلم يكن منهم إكراه لأحد على اعتناق الدين الجديد ، وإنما كان هناك جهاد ضد من يعترض طريق الدعوة محاولا إطفاء شعلتها والحيلولة دون تسرب أنوارها ، أو التنقص من كرامتها وكرامة الأمة التى تنتمى إليها .

---

(١) دراسات فى الحضارة الإسلامية ترجمة أحمد شلبى ص٢٢ .

وقد كانت دولة بنى العباس على درجة عالية من الاعتدال وحرية الرأى ولذلك تعددت الفرق الإسلامية فيها تعدداً كثيراً ، وكان الصراع محتدماً فى كل مجال ومسيطراً على كل اتجاه : صراع بين القديم والجديد ، بين حياة اللهو وحياة الزهد ، بين العرب والعجم ، بين البداوة والحضارة ، بين التخلف والمدنية ، بين الإيمان الخالص والاعتقاد الصادق من جهة وبين الشك والزندقة والإلحاد من جهة أخرى ، وقد كان الصراع بالغا أشده فى مجال الزندقة والإلحاد ... يقول صاحب " ضحى الإسلام " :

" يخيل إلنا ونحن نقرأ تاريخ هاتين الحركتين أنا فى موقف قتال مستحر تستخدم فيه كل وسائل الحروب فخدع ومكايد ووسائل سرية أحياناً ، ولجوء إلى السيف وسفك للدماء أحياناً وعقد مجالس ومقارعة بالحجج أحياناً ... " . (١)

وكانت الزندقة تهمة غالبة فى العصر العباسى توجه إلى كل ماجن متحلل بإطلاقها العام ، كما توجه إلى كل منحرف عن عقيدة الدين ومبادئه ، وكانت توجه أيضا إلى كل من يظهر الإسلام ويخفى عقيدة المجوس والتدين بدين الفرس باطناً .(٢) ومع ذلك فلم تتمكن المجوسية من مواجهة الإسلام والنيل منه حتى مع غلبة العنصر الفارسى فى العصر الأول للدولة العباسية وحركات الزندقة التى كانوا ينفثونها من حين لآخر قضى عليها بقوة وبطش . ولقد كان وراء هذه الحركات قوى تحميها وتدفعها وتخطط لها وتهيمن عليها لا تريد بذلك إلا الكيد للإسلام وأهله والإشادة بالقومية الفارسية ونشر ألوية الشعوبية العنصرية .

ولقد تعقب الخلفاء العباسيون هؤلاء الزنادقة وقضوا عليهم وعلى تعاليمهم فالمهدى كان يقتل على الظنة كل من رمى عنده بالزندقة كما أنه أصدر أمراً بتتبع

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ١ ص١٤٣ .
(٢) ضحى الإسلام جـ١ ص١٤٣ - ص ١٦٠ .

الزنادقة وقتلهم وتمزيق أجسادهم شر ممزق ، وقد دفع بشاراً إلى حمدويه صاحب الزنادقة وقال له " اضربه ضرب التلف "[1] . وقد أسرف المهدى فى قتل الملحدين وأنشأ هذا الديوان الذى عهد به إلى صاحب الزنادقة لتتبعهم ومحاكمتهم والقضاء عليهم كما ألف هيئة علمية لمناظرتهم وتعقب آرائهم وعقائدهم ووضع الكتب للرد عليهم .[2] وجاء الخليفة الهادى فسار سيرة أبيه فى هذا الشأن ، وإذا كانت غالبية الزنادقة من الفرس فقد كان هناك بعض العرب الذين اتهموا بالزندقة من أمثال صالح بن عبد القدوس ومطيع بن إياس الشاعر ، وقد ذكر ابن النديم أن أكثر البرامكة كانوا زنادقة .[3] ويذكر ابن قتيبة أن الأصمعى رماهم بالكفر .[4] وقد بقيت الزندقة بعد عصر الرشيد حتى تسربت إلى بلاط المعتصم فقد كان قائده الأفشين يدين بعقائد المانوية .

ومن بين حركات الموالى التى كان لها أثرها فى المجتمع الإسلامى فى العصر العباسى : " الراوندية ، والمقنعية ، والخرمية " إلى جانب حركة الزنادقة : فالروندية تزعم أن الروح التى كانت فى عيسى بن مريم صارت فى على بن أبى طالب ثم فى الأئمة واحداً بعد واحد إلى إبراهيم بن محمد "سبط العباس عم النبى" وأنهم آلهة ، وقد استحلوا الحرمات وعبدوا أبا جعفر المنصور وصعدوا إلى الخضراء وهى القبة التى بناها المنصور ببغداد - فألقوا بأنفسهم كأنهم يطيرون وكانوا يصيحون بأبى جعفر : أنت ، أنت يعنون أنت الله . وقد قاتلهم أبو جعفر وتتبعهم وفتك بهم .[5]

---

(١) الأغانى جـ٣ ص٧٣ .
(٢) مروج الذهب جـ٢ ص٤٠١ .
(٣) الفهرست ص٤٧٣ .
(٤) المعارف ص١٤٨ ط. وستنفلد .
(٥) الطبرى جـ٩ ص٣٠٧ .

أما المقنعية فهم أتباع المقنع الذى ظهر فى عهد المهدى ١٥٨ - ١٦٩هـ وكان رجلاً قبيح الخلقة اتخذ له قناعاً من ذهب يضعه على وجهه وادعى الألوهية ، وهو يرى أن الله خلق آدم فتحول فى صورته ثم فى صورة نوح ثم إلى صورة إبراهيم ثم إلى صورة واحد فواحد من الأنبياء والحكماء ثم فى صورة محمد ثم تحول بعده فى صورة أبو مسلم الخراسانى ثم زعم أنه انتقل منه إليه ، وقد أسقط الصلاة والزكاة والصوم والحج وأباح للناس الأموال والنساء كما أباح لهم تعاليم مزدك فعبده الناس وسجدوا له . (١)

وقد قضى على المقنع فى نهاية بشعة إذ أقدم على قتل نفسه وأولاده ونسائه بالشراب المسموم ثم ألقى نساءه وأولاده فى النار وأخيراً ألقى بنفسه فيها خوفاً من أن يظفر أعداؤه بجثته وجثث نسائه وأولاده . (٢)

أما الخرمية فهم أتباع " بابك الخرمى " ولقد كانت هذه الطائفة كثيرة المعتقدات والبدع ، ومبادىء الخرمية كان لها أكبر الأثر فى تاريخ العصر العباسى فمن مبادئهم الأساسية تحويل الملك من العرب إلى الفرس المجوس وقد احتالوا من أجل بلوغ هذا الهدف وموهوا على الناس نحلتهم وزينوها للجهال . (٣) ومن مبادىء الخرمية تأليه البشر والقول بالرجعة ، وقد رفضوا جميع الفروض الدينية كالصلاة والصوم والزكاة والحج وأباحوا لأنفسهم شرب الخمر وكانوا يقولون بإباحة النساء وإباحة كل ما تستلذه النفس وينزع إليه الطبع .(٤) ومن الحركات الشعوبية التى تمثل اتجاهاً عقائدياً منحرفاً وثورة سياسية فى نفس الوقت حركة

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى جـ٢ ص١٠٢ .
(٢) تاريخ الإسلام السياسى جـ٢ ص١٠٣ .
(٣) البدء والتاريخ للمقدسى جـ٥ ص١٣٤ .
(٤) البدء والتاريخ جـ٤ ص٣٠ وما بعدها ، السيادة العربية ترجمة حسن ابراهيم ص٩٩ وما بعدها .

الأفشين والمازيار والأفشين من بلاد أشروسنة أحد أجزاء بلاد ما وراء النهر وكان هو وأبوه فى خدمة الخليفة المعتصم فولاه قيادة إحدى الفرق التى سيرها لغزو عمورية فاشتهر فى حروبه حتى وثق به المعتصم وولاه حرب بابك الخرمى .[1] وكان المازيار من دهاقين الفرس ويخضع مباشرة للخليفة العباسى وقد انتهز فرصة انشغال الدولة العباسية بحرب بابك الخرمى فاتصل به وبالأفشين سراً وعمل ثلاثتهم على محو الإسلام من بلادهم والتخلص من حكم العرب والدولة العباسية ، وكانت نصرة المجوسية هدفاً يسعون إليه بكل الوسائل وشتى الطرق إلى أن افتضح أمرهم وكشف الله سترهم وقضى عليهم .[2] وكان اليهود والنصارى منتشرين فى الدولة الإسلامية وكانت أموال الجزية التى تجبى من غير المسلمين ببغداد وحدها تدل على كثرة من كان بها من اليهود والنصارى ، ويذكر ياقوت فى معجمه .[3] أن اليهود كانوا منتشرين على نهر دجلة والفرات والموصل وعكبرة وواسط وبغداد والحلة والكوفة والبصرة وفى كثير من بلاد فارس وفى همذان وأصفهان وشيراز وغزنة وسمرقند وكان فى فارس بلدتان تسمى كل منهما اليهودية إحداهما بجرجان والأخرى بأصبهان .

وكانت شهرة اليهود فى النواحى المالية والاشتغال بالصيرفة والصياغة معروفة . كذلك كان النصارى منتشرين فى أنحاء الدولة الإسلامية وكانت لهم مهن وحرف خاصة يبرعون فيها ويشتهرون بها .[4] ويرى " جولد زيهر " أن انتشار الإسلام وبخاصة فى الشام والعراق ومصر أفسح للنفوس المتعطشة هذا المجال

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى جـ٢ ص١٠٦ .
(٢) مروج الذهب جـ٢ ص٣٥٤ .
(٣) معجم البلوان فى مادة يهودية .
(٤) ثلاث رسائل للجاحظ ص١٨ .

الروحى وبخاصة بعد أن تيسر لها اكتساب تجارب فى هذا المجال من مخالطة المسيحيين[1] ومما لاشك فيه أن يكون لها مجال للتأثير ، ومن هذا المنطلق كان رأى " فون كريمر " بتأثير المسيحية فى نمو عناصر الزهد وتوطيد نزعته[2] ولاريب أن جولد زيهر المتعصب لمسيحيته والمشهور بكتاباته ضد الإسلام مسرف فى رأيه هذا إسرافا شديداً .

ومهما يكن من أمر فقد خالط المسلمون هؤلاء وأولئك وتشعبت العلاقات بينهم وامتدت سبل الاتصال الاجتماعى والفكرى والثقافى وشاع كثير من عقائدهم وآرائهم وامتزج بالمذاهب والنحل المختلفة ، كما تسرب كثير من آراء اليهود ومعتقداتهم عن طريق من دخلوا فى الإسلام منهم وبخاصة مسلمة اليمن وكثير ممن أسلم من اليهود قصاص وقراء وأخباريون .[3] وقد امتلأت كتب التفسير بكثير من هذه الآراء والأخبار بما عرف باسم " الإسرائيليات "[4] كما كان لليهود أثر "كبير " فى بعض المذاهب الإسلامية مثل القول بخلق القرآن ومعتقدات الرافضة[5] والقول بنسخ القرآن والبداء[6] والأقوال فى التشبيه والتجسيم التى أخذ بها المشبهة[7] والقول بالرجعة عند الشيعة كذلك كان بعض المتكلمين فى العقائد من أصل يهودى .[8]

وقد ظهرت آثار هذه الديانات فيما جاء به بعض الأدعياء وما أدخلوه على

---

(١) العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد زيهر ترجمة محمد يوسف موسى وآخرين ص١٣١ .
(٢) الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ترجمة مصطفى بدر ص١٢٠ .
(٣) ضحى الإسلام جـ١ ص٣٥٠ .
(٤) مقدمة ابن خلدون ص٣٦٧ .
(٥) ابن الأثير جـ٧ ص٢٦ .
(٦) الملل والنحل للشهرستانى صـ٥٥ ، صـ٨٥ ، صـ٨٦ .
(٧) الملل والنحل ص٣٧ ، ص٣٨ .
(٨) المعارف لابن قتيبة ص١٨٠ .

العقيدة الإسلامية فى أوقات متقدمة : ففى أخريات القرن الأول وأوائل القرن الثانى ظهر رجل يدعى " جهم بن صفوان " بترمز وبلاد المشرق فأورد على أهل الإسلام شكوكاً أثرت فى الملة الإسلامية آثاراً قبيحة تولد عنها بلاء كبير .[١] وقد أخذ يعلن فى الناس أن لمقدورات الله تعالى ومعلوماته غاية ونهاية وأن لأفعاله آخراً وأن الجنة والنار تفنيان ويفنى أهلهما حتى يكون الله تعالى آخراً لا شىء معه كما كان أولاً لا شىء معه .[٢] وأن الإيمان هو المعرفة بالله فقط والكفر هو الجهل بالله فقط وأنه لا فعل لأحد فى الحقيقة إلا لله وحده وأنه هو الفاعل كما ذهب إلى أن علم الله تعالى محدث وأن القرآن مخلوق .[٣] ويعتبر جهم بن صفوان أحد رؤس المرجئة الخالصة ويسمى أتباعه بالجهمية .[٤] ومن زعماء المرجئة أبو الحسين الصالحى ويونس السمرى وأبو شمر وأبو ثوبان وغيلان ومحمد بن شبيب وأبو معاذ التومنى وبشر المريسى ومحمد بن كرام .[٥] وقد جعل أبو الحسن الأشعرى أبا حنيفة وأصحابه الفرقة التاسعة من فرق المرجئة .[٦] ويبدو أن إطلاق الإرجاء على أبى حنيفة بالمعنى اللغوى وهو التأخير وليس بالمعنى العرفى لأنه كان يؤخر العمل فى المرتبة ويؤخر الحكم على مرتكب الكبيرة ولا يجزم به ويقول : أمره مفوض إلى ربه .[٧]

والإرجاء فى حقيقة أمره حركة سياسية آثرت أن تعيش فى حياد سلبى بالنسبة لجميع الطوائف ولشتى النزعات . والفرق المختلفة كلها وجميع أتباعها فى نظر المرجئة مؤمنون وبعضهم على حق وصواب وبعضهم على خطأ وأمر الجميع

---

(١) المقريزى جـ٢ ص٣٥٧ .
(٢) مقالات الإسلاميين جـ١ ص٢٢٤ .
(٣) انظر الملل والنحل ومقالات الإسلاميين .
(٤) مقالات الإسلاميين جـ١ ص١٩٧ .
(٥) مقالات الإسلاميين فرق المرجئة جـ١ ص١٩٧ وما بعدها .
(٦) مقالات الإسلاميين جـ١ ص٢٠٢ .
(٧) مقالات الإسلاميين جـ١ ص٢٠٢ هامش تحقيق محى الدين عبد الحميد .

موكول إلى الله يقضى بينهم بحكمه وليس لأحد أن يلعن طائفة أو أن يحكم بالكفر على أخرى ولذا فإن المرجئة كانوا فى نظر الحزب الحاكم موضع رضا وتقدير ولقد روى عن المأمون قوله : " الإرجاء دين الملوك " [1] بمعنى أن الإرجاء هو المذهب الذى يرضاه الملوك من أتباعهم لأنه يلزمهم بالمسالمة ونبذ الثورة أو لأنه يلزم الملوك بالاعتدال فى الحكم على الفرق الأخرى .

وفى أوائل القرن الثانى كان شر الخوارج قد استطار وكانوا قد أعلنوا أن مرتكب الكبيرة كافر مخلد فى النار لا يخرج منها أبداً والخوارج مع ما كانوا يتصفون به من صراحة وجرأة وثورية وفدائية كانوا يلتزمون بالجانب العملى التطبيقى فى المنهج السياسى المصطبغ بالصبغة الدينية فلم تكن دعوتهم ذات طابع جدلى فحسب ولم يكونوا محايدين سلبيين كما كان غيرهم بل قد عنف صراعهم واشتد نضالهم ضد بنى أمية إلى أن دالت دولتهم وأفل نجمهم وخلا الميدان لحكم جديد وعهد مغاير بقيام الدولة العباسية . ولم تكن نظرة الخوارج للخلفاء من بنى العباس مختلفة عن نظرتهم لخلفاء بنى أمية فلقد كانوا يرون أنهم غير أهل للخلافة ولا يصلحون لها ولم يختاروا اختيارا صريحا وكلهم يجب الخروج عليه ومقاتلته وهكذا هب الخوارج فى وجه العباسيين وحملوا لواء الثورة على العهد الجديد تسيرهم مبادئهم وتحكمهم عقائدهم وتقودهم آراؤهم غير أن قوتهم خانت حميتهم ومقدرتهم تخلفت عن هممهم فلم يكونوا على مستوى ما كانوا عليه فى العهد الأموى قدرة وقوة وبأساً وثورية ونضالاً ولكن آراءهم وأفكارهم وعقائدهم كانت مجالاً لنقاش طويل وجدال متواصل مرير .[2]

---

(١) تاريخ بغداد لطيفور ص٨٦ وانظر ضحى الإسلام جـ٣ ص٣٢٦ .

(٢) أدب الخوارج بين النزعة الدينية والثورة السياسية لعبد الله حسين ص٢٦ رسالة ماجستير مخطوطة بكلية اللغة .

وإذا كانت شوكة الخوارج قد ضعفت وهانت ولانت فى العصر العباسى فإن الشيعة العلوية قد تزايد خطرها وعظم أمرها وتعددت فرقها وطوائفها وكثر أتباعها ومؤيدوها واشتد الحماس لها وارتكز على أساس دينى مكين هيأ للدعوة رواجاً وازدهاراً مما أقلق العباسيين وأثارهم وحرضهم على شن حرب عاتية ضد العلويين . ولم يقف العلويون مكتوفى الأيدى بل إنهم نابذوا العباسيين العداء وقاوموهم بالسيف تارة وبالمكيدة والدهاء تارة أخرى وهب شعراؤهم وخطباؤهم يضرمون نيران الحمية فى القلوب المتوقدة ويشعلونها حربا ضروسا على بنى العباس ، وقامت ثورات عديدة ضد الحكم العباسى نذكر من بينها ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم فى عهد المنصور ، وثورة الحسين بن على بن الحسن فى عهد الهادى ، وثورة يحيى وإدريس ابنى عبد الله بن الحسن فى عهد الرشيد ، وثورة محمد الديباج بن جعفر الصادق فى عهد المأمون .[1]

ولقد كان للصراع السياسى حول الخلافة والإمامة وما تبعه من بحوث دينية حول الإيمان والكفر والخير والشر والحكم على مرتكب الكبيرة إلى غير ذلك أثر كبير فى نشأة مذهب قوى عتيد فى التاريخ الإسلامى وهو مذهب الاعتزال . يقول البغدادى[2] " حدث فى أيام الحسن البصرى خلاف واصل بن عطاء الغزالى فى القدر وفى المنزلة بين المنزلتين وانضم إليه عمرو بن عبيد فى بدعته فطردهما الحسن من مجلسه فاعتزلا عنه سارية من سوارى مسجد البصرة فقيل لهما ولأتباعهما معتزلة لاعتزالهم قول الأمة فى دعواها أن الفاسق من أمة الإسلام لا مؤمن ولا كافر " وحقيقة فإن الصراع السياسى كان هو الأساس الذى فتح المجال فسيحاً أمام المتصارعين من الفرق والأحزاب حول أمور دينية تبدو فى الظاهر

(١) تاريخ الإسلام السياسى جـ٢ ص١٢٩ .
(٢) الفرق بين الفرق ص١٥ .

بعيدة عن السياسة لكنها فى حقيقتها وجوهرها أشد ما تكون اتصالا بها واستهدافا لها ، فموقف المعتزلة من مرتكب الكبيرة والحكم عليه بالإيمان أو بالكفر أو بالمنزلة بينهما نابع أساسا من الموقف السياسى والحكم على الطوائف المختلفة بالكفر أو العصيان وهل المتنازعون على حق أو على باطل ومن هنا نرى المعتزلة تتكلم فى الامامة وشرط الإمامة يقول المسعودى : [1]

" يذهب المعتزلة إلى أن الإمامة اختيار من الأمة وذلك أن الله عز وجل لم ينص على رجل بعينه وأن اختيار ذلك مفوض إلى الأمة تختار رجلاً منها ينفذ فيها أحكامه سواء كان قرشيا أو غيره من أهل ملة الإسلام وأهل العدالة والإيمان ولم يراعوا فى ذلك النسب ولا غيره .. " والإجماع يكاد ينعقد علي أن المبادىء والأصول التى يدين بها المعتزلة تنحصر فى القول بالتوحيد والقول بالوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر "[2] ومن هنا نرى أن الموقف السياسى فرض عليهم النظر والتعمق فى أمور دينية بحتة واتجاهات عقائدية خاصة بلورت هذا المذهب وجعلت له طابعه المتميز ، ولم تبلغ تعاليم المعتزلة مبلغها من الانتشار والقوة إلا فى العصر العباسى الأول وبخاصة فى عهد المأمون " ١٩٨ - ٢١٨هـ " الذى أباح للمتناظرين حرية الكلام فى شتى الموضوعات باعتبار أن مجالس المناظرة تساعد على إزالة الخلاف بين العلماء ، وكان المأمون يميل إلى الأخذ بمذهب المعتزلة لأنه أكثر حرية واعتماداً على العقل فقرَّب أتباع هذا المذهب إليه ومن ثم أصبحوا ذوى نفوذ كبير فى قصر الخلافة ببغداد .[3] وقد سار المعتصم على سياسة أخيه المأمون فى انتصاره للمعتزلة وحمل الناس على القول

---

(١) مروج الذهب جـ٢ ص١٩١ وما بعدها .
(٢) مقالات الإسلاميين جـ١ ص٣١١ .
(٣) تاريخ الإسلام السياسى جـ٢ ص١٤١ .

بخلق القرآن ، وكذلك اقتدى الواثق بأبيه المعتصم فى انتصاره للمعتزلة وتشدده فى فرض آرائهم الدينية على الناس مما أدى إلى إثارة الخواطر والمشاعر .

وفى الوقت الذى نما فيه مذهب المعتزلة ظهر أهل السنة وأصبح هذا الاسم يطلق على كل من يتمسك بالكتاب والسنة واسم المعتزلة يطلق على كل من يأخذ بالكلام والنظر .

وقد مر مذهب أهل السنة بأدوار مختلفة وقام الصراع بينهم وبين المعتزلة واصطدم زعماء أهل السنة مع العباسيين أنفسهم وكان من مبادئهم التمسك بنصوص الكتاب والسنة . وأن الاعتماد على النظر والعقل قد يوصل إلى الإلحاد . وقد تعرض أهل السنة فى أحيان كثيرة للمسائل السياسية وأدلوا بآرائهم فيها كمسألة الإمامة فقد نقم أبو حنيفة على العباسيين سطوتهم وشدتهم ومال إلى جانب العلويين فى الفتنة التى قامت بين أبى جعفر المنصور ومحمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم ، كما كان مالك بن أنس يفتى الناس بأنه ليس على مكره يمين ومعنى ذلك أن من بايع العباسيين مكرها فله أن يتحلل من بيعته .

وظهر الحلاّج وهو أبو المغيث الحسين بن منصور وأصله مجوسى من فارس خالط الصوفية ولبس الصوف والمسوح تارة والثياب المصبغة تارة ، وزى الجند تارة فقد كان مخلطا وتمكن من التأثير فى العامة بمخاريق كان يعتمدها وتكلم بكلام الصوفية وطوف بالبلاد ثم قدم إلى بغداد وبنى بها داراً وكثر شغف الناس به وميلهم إليه حتى كانت العامة تستشفى به .[1] وقد قتل فى عهد المقتدر بالله .

لقد كان للأساس الدينى الذى قامت عليه دولة بنى العباس أثر بالغ فى

---

(١) الفخرى ص٢٦٠ .

العناية بالمظهر الدينى فهم آل النبى وورثته وهم خلفاء المسلمين وولاة أمورهم وهم رعاة الدين وحماته ودعاته والحفظة على تراثه ومبادئه وهم المهيمنون على تشريعاته وأحكامه وتنفيذ توجيهاته وأوامره ، ولذا فقد كان خلفاء بنى العباس يحرصون على الخروج إلى الصلوات الجامعة فى الحشود الحاشدة من رجال الدولة وقادة الجيش تظللهم الرايات السود شعار بنى العباس وبين أيديهم العلماء والفقهاء وكان الخلفاء فى العصر العباسى الأول يخطبون الناس ويعظونهم بأنفسهم ويباشرون توجيه النصح إليهم وكان لهم من البلاغة والفصاحة ما يأسر القلوب ويبهر النفوس ويحوز الإعجاب . وللبحترى قصيدة يمدح فيها الخليفة المتوكل ويذكر خروجه لصلاة عيد الفطر يقول فيها :[1]

حتى طلعت بضوء وجهك فانجلى ... ذاك الدجى وانجاب ذاك العثير

فافتن فيك الناظرون فإصبع ... يومى إليك بها وعين تنظر

يجدون رؤيتك التى فازوا بها ... من أنعم الله التى لا تكفر

ذكروا بطلعتك النبى فهللوا ... لما طلعت من الصفوف وكبروا

حتى انتهيت إلى المصلى لابسا ... نور الهدى يبدو عليك ويظهر

ومشيت مشية خاشع متواضع ... لله لا يزهى ولا يتكبر

فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما ... فى وسعه لمشى إليك المنبر

أبديت من فصل الخطاب بحكمة ... تنبى عن الحق المبين وتخبر

ووقفت فى برد النبى مذكرا ... بالله تنذر تارة وتبشر

وقد سيطرت هذه النزعة الدينية الغالية على الفنون الأدبية فتأثرت بها

---

(١) وفيات الأعيان جـ٥ ص٧٧ ، ص٧٨ – الديوان جـ٢ ص١٠٧١ .

وعبرت عنها وسرت روحها فى الكيان والوجدان نرى ذلك بوضوح فى الخطب والمواعظ والقصص والرسائل والقصائد والندوات والمناظرات والمؤلفات المختلفة . كما نراه فيما كان يشيع فى مدح الخلفاء من ضراعة ومبالغة لا تقف فى سبيلها حدود باعتبار أن الخليفة ظل الله فى أرضه وأن ولايته أمر الناس إرث وحق إلهى مقدس وأنه مختار من الله مصون برعايته وعنايته . يقول بشار فى مدح المهدى :(١)

ورثتم رسول الله بيت خلافة ... وعزا على رغم العدو وسؤددا

وأنتم حماة الدين لولا دفاعكم ... لقد قذيت عيناه أو كان أرمدا

ومنصور النمرى يقول فى مدح الرشيد :(٢)

يا ابن الأئمة من بعد النبى ويا ... ابن الأوصياء أقرّ الناس أم دفعوا

إن الخلافة كانت إرث والدكم ... من دون تيم وعفو الله متسع

لولا عدىّ وتيم لم تكن وصلت ... إلى أمية تمريها وترتضع

وما لآل علىّ فى إمارتكم ... حق وما لهم فى إرثكم طمع

وكان للثقافة الدينية التى ازدهرت فى هذا العصر وسيطرت على العقول والقلوب وتغلغلت فى أعماق الوجدان آثارها فى كثير من المعانى والأفكار التى زخر بها الأدب العربى شعراً ونثراً ولاسيما تلك المعانى الدينية الممتزجة بالبحوث الفلسفية والكلامية التى ازدهرت هى الأخرى فى هذا العصر فقد تعددت الفرق الدينية وتشعبت مذاهبها واتجاهاتها وأصبحت المسائل السياسية وراء كثير من

---

(١) ديوان بشار جـ٣ ص٣٩ .

(٢) طبقات ابن المعتز ص٢٤٥ .

البحوث الدينية التى عبر عنها الأدباء والشعراء فى كل مناسبة . وكان لعلماء الكلام وأقطابه من رجال الفرق دور كبير فى نهضة النثر العباسى ورقيه وازدهاره لما كانوا يمتازون به من ثقافات متعددة تحقق لهم " التدابير العجيبة والعلوم الغريبة وآثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة والحكم الرفيعة والمذاهب القويمة والتجارب الحكيمة والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة والأمثال السائرة " .[1] وقد أثرت المذاهب الكلامية فى الأدب تأثيراً كبيراً واعتنق كثير من الشعراء بعض المذاهب الكلامية وانتصروا لها ودافعوا عنها ورددوا المعانى التى تدفقت عليهم من جمهور المتكلمين . وإلى المعتزلة يرجع الفضل فى وضع الأسس الأولى لعلم الكلام وعلم البلاغة وأصول الجدل والمناظرة كما يرجع إليهم الفضل فى وضع أصول الخطابة فى اللغة العربية .[2] ويروى الجاحظ " أن كبار المتكلمين ورؤساء النظارين - وعلى رأسهم المعتزلة - كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء وهم تخيروا الألفاظ لتلك المعانى وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له فى لغة العرب اسم فصاروا فى ذلك سلفا لكل خلف وقدوة لكل تابع[3] كما يقرر صاحب الانتصار أن المعتزلة هم أرباب النظر دون جميع الناس وأن الكلام لهم دون سواهم .[4] وقد كان لاعتناق بعض خلفاء بنى العباس لمذهب الاعتزال كالمأمون والمعتصم والواثق أثر كبير فى دعم فكرة الاعتزال نظريا وتطبيقيا والعمل على رواجها وازدهارها وإتاحة الفرصة أمامها لإحداث مزيد من التأثير الفعال فى شتى المجالات .

---

(١) الحيوان جـ١ ص٤٢ .
(٢) البيان والتبيين جـ١ ص١٠٥ .
(٣) نفسه ص١٠٦ .
(٤) الانتصار لأبى الحسين عبد الرحيم الخياط ص٧٢ .

وكانت هناك حركات دينية واتجاهات عقائدية ومذاهب موروثة وزندقة وإلحاد وقد ظهر كثير من هذه الآراء والمعتقدات فى الأدب العباسى شعراً ونثراً كما كان للشعراء والأدباء دورهم فى كشفها ومهاجمتها ونحن نرى شاعراً كأبى تمام يفضح عقيدة الأفشين يقول :

وقد كان بوّأه الخليفة جانبا ... من قلبه حرما على الأقدار

فإذا ابن كافرة يسر بكفره ... وجداً كوجد فرزدق بنوار

ما زال سر الكفر بين ضلوعه ... حتى اصطلى شر الزناد الوارى

صلّى لها حيا وكان وقودها ... ميتا ويدخلها مع الفجار [1]

وقد أورد الجاحظ لأبى نواس قصيدة يهجو بها أبان بن عبد الحميد اللاحقى وكان زنديقاً يقول فيها :[2]

جالست يوما أبانا ... لا درّ درّ أبان

ونحن حضر رواق الأمير بالنهروان

حتى إذا ما صلاه الأولى دنت لأوان

فقام ثم بها ذو ... فصاحة وبيان

فكل ما قال قلنا ... إلى انقضاء الأذان

فقال : كيف شهدتم ... بذا بغير عيان

لا أشهد الدهر حتى ... تعاين العينان

فقلت سبحان ربى ... فقال سبحان مانى

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى جـ٢ ص١٠٧ ، وديوان أبى تمام ص٢٠٣ المجلد الثانى شرح الخطيب التبريزى .

(٢) الحيوان جـ٤ ص١٤٣ ، ص١٤٤ .

فـــقـلت مـــوسى نجيُّ الـ ـمـــهـــيـــمن المنّان

فـــقـــال ربك نو مـــقـلة ولسـان

أنفـــسـه خلقـتـه أم من ؟ فـقـمت مكانى

وقـــمت أســـحب ذيلى عـن هـازل بـالـقـــرآن

عن كـافـر يتـمـارى بـالكفـر بـالرحـمن

وروى عن بشار بن برد قولـه :(١)

إبليس أفـضل من أبيكم آدم فـتـبـينوا يا مـعـشـر الأشـرار

الـنار عـنصـره وآدم طـينـه والطين لا يسـمـو سـمـو النار

وقولـه :(٢)

الأرض مظلمـة والنار مـشـرقـة والنار مـعـبـودة مـذ كـانت النار

وقد قاوم الخلفاء هذه العقائد المنحرفة والزندقة المتفشية وظهر شعر كثير وأدب غزير يندد بهذه المعتقدات الباطلة والنحل الدخيلة بيد أن كثيراً من أباطيل الزنادقة وآرائهم ومعتقداتهم قد تمثلت فى شعر كثير من الشعراء ولذلك أصبح الاتهام بالزندقة بالحق أو بالباطل من سمات هذا العصر ، ويحكى صاحب ضحى الإسلام عن أبى العلاء قوله فى رسالة الغفران " وذكر صاحب كتاب الورقة(٣) جماعة من الشعراء فى طبقة أبى النواس ومن قبله ووصفهم بالزندقة وسرائر الناس مغيبة وإنما يعلم بها علام الغيوب " (٤) . وقد اتهم فى هذه الحركة بشار

(١) الأغانى جـ٣ ص٢٤ .
(٢) الأغانى جـ٣ ص١٤٥ .
(٣) هو محمد بن داود بن الجراح (٢٩٦هـ) .
(٤) ضحى الإسلام جـ١ ص١٦٣ .

وأبو نواس وصالح بن عبد القدوس ودعبل . وكان للزنادقة آراء فى العلم والأدب والسياسة إذ تأثر بعقائدهم بعض الأدباء والمفكرين وقد بذل كثير منهم جهداً عظيماً لمكافحة الزندقة والرد على أباطيلها .

وكما كان لاتجاهات الزنادقة وآرائهم ومعتقداتهم آثار بالغة فى الأدب كذلك كان لحياة الإيمان أثر كبير فى أدب الزهد والتصوف وفى كثير من الخطب والمواعظ والقصص والأشعار التى حفل بها التراث العربى فى هذا العصر المزدهر .

وحقيقة الأمر - كما أرى - أن جانب الإيمان واليقين والجد جانب مضىء مشرق مزدهر فى هذا العصر على كثرة ما حفلت به الحياة من فنون اللهو والعبث ومن اتجاهات الشك والانحراف والزندقة وتلك آية الآيات على حيوية هذا العهد .

يقول صاحب الفخرى بعد أن ذكر أن الدولة العباسية كانت دولة ذات خداع ودهاء وغدر " إلا أنها كانت دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم أسواق العلوم فيها قائمة وبضائع الآداب فيها نافقة وشعائر الدين فيها معظمة والخيرات فيها دارة والدنيا عامرة والحرمات مرعية " [1] . وقد كان الروح الدينى بحق وراء النهضة العلمية المتقدمة والازدهار الفكرى الثقافى كما أنه كان وراء كثير من أدب الزهد والحكمة والتصوف وشعر التعليم والتهذيب وقصص الوعظ والتوجيه .

وكان بين المسلمين كثير من أهل الأديان الأخرى وبخاصة اليهود والنصارى ، وقد تسرب كثير من عقائدهم وآرائهم إلى المسلمين وأصبحت هذه العقائد والآراء تشكل نبعاً من منابع الثقافة الدينية ظهرت آثاره بجلاء فى الأدب

---

(١) الفخرى ص١٤٩ ص١٥٠ .

العربى شعره ونثره فقد دخلت كتب الأدب نصائح يهودية تروى عن أنبيائهم وصلحائهم وذهب بعض الباحثين الى أن بعض قصص ألف ليلة من أصل يهودى .[1] وهو رأى لا يقوم على أساس وفى أدب الطوائف والفرق نجد كثيرا من آراء النصارى ومعتقداتهم ونصائح ومواعظ الرهبان والأحبار وشرائع اليهود .

وقد عرف فى العصر العباسى احتفال الناس ببعض أعياد أهل الكتاب من اليهود والنصارى وقال الشعراء فيها شعراً كثيراً وكان الناس يشتركون فى أعياد النصارى وعلى سبيل المثال نجد أن يوم الشعانين كان عيدا عاما يشترك فيه جمهور الناس حتى الخلفاء أنفسهم .[2] وقد ارتبطت هذه الأعياد بالأديرة المعروفة التى كانت مثار نزعتين متباينتين اتضح أثرهما فى الأدب إحداهما نزعة دينية زاهدة منصرفة إلى الله معرضة عن متع الحياة ، والأخرى يتمثل فيها اللهو والمجون والخلاعة والغزل الصريح المكشوف والحديث عن الخمر ونشوتها ووصف مجالسها وسقاتها ، وقد نشأ حول الأديار أدب غزير وشعر كثير له قيمته الفنية وجوانبه التأثيرية وفى كتاب الديارات للشابشتى نماذج عديدة من هذا الأدب الغزير . وفى دير سابر يقول الحسين بن الضحاك :[3]

وعواتق باشرت بين حدائق ... ففضضتهن وقد حسن صحاحا

أتبعت وخزة تلك وخزة هذه ... حتى شربت دماءهن جراحا

أبرزتهن من الخدور حواسرا ... وتركت صون حريمهن مباحا

فى دير سابر والصباح يلوح لى ... فجمعت بدرا والصباح وراحا

فأذهب بظنك كيف شئت فكله ... مما اقترفت تغطرسا وجماحا

(١) ضحى الإسلام جـ١ ص٣٥٧ .
(٢) الأغانى جـ٩ ص١٢٨ .
(٣) الديارات ص٣٥ ط المعارف ببغداد .

وفى دير قوطا يقول عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع :[1]

يا دير قـوطا لقـد هيـجت لى طربا ... أزاح عن قلبى الأحـــزان والكربا

كم ليلة فـيك واصلت الســرور بهـا ... لما وصلت لهــا الأدوار والنخــبــا

فى فتيـة بذلوا فى القصف مـا ملكوا ... وأنفقوا فى التصـابى المال والنشبا

وشـادن مـا رأت عـينى له شـبـهـا ... فى الناس لا عـجـمـا منهم ولا عـربا

إذا بدا مــقــبــلا ناديت واطربا ... وإن مـضى مـعـرضـا ناديت واحـربا

أقـمت بالدير حـتى صـار لى وطنا ... من أجله ولبـست المسح والصلبـا[2]

وكمـا قلت فـقـد انتشـرت فى العصـر العبـاسى آراء وملل ونحل ومـذاهب وعقـائد وكان الصـراع بينهـا طويلا مريرا وقد أثرت هذه المذاهب والمعتقدات فى الأدب وتسرب إلى الشعر كثير من الآراء والعقائد وأصبح الشعر نفسه سلاحاً فى هذه المعارك الطاحنة يعلى راية فرقة ويرفع أقدار دعاتها ويندد بما عداها ويقوض بنياتها وكان لنا من ذلك كله أدب شيعة وأدب خوارج وأدب مرجئة وأدب معتزلة وأدب موال وأدب زنادقة الى جانب أدب الدولة الرسمى ولكل أدب من هذه الآداب لون خاص واتجاه متميز وخصائص فنية دقيقة كانت بحق ميداناً رحباً فسيحاً لدراسات أدبية ونقدية تمتاز بالخصوبة والعمق :

فأدب الشيعة أدب غزير فياض يمتاز بصدق العاطفة وعمق الانفعال ولوعة الأسى وتوقد الحمية والحماس وغلبة الجانب الخيالى الحالم الذى ينساب فى أعطاف قصائدهم بتأثير الظروف الصعبة التى لم تمكنهم من تحقيق ما يبتغون فى دنيا الواقع فتلمسوه فى عالم الخيال.[3] وكان من هذا الأدب الخطب الكثيرة

(١) شاعر أديب فى أيام المعتصم : تاريخ بغداد جـ١٠ ص٣٦ .
(٢) الديارات ص٤١ .
(٣) أثر التشيع فى الأدب العربى : محمد سيد كيلانى ص٤٣ ، وانظر أدب الشيعة لعبد الحسيب طه .

والرسائل البليغة والأجوبة القصيرة والقصص المثيرة والشعر الغزير . ومن أشهر شعرائهم فى العصر العباسى السيد الحميرى وكان غاليا فى تشيعه ، ومن خير قصائده :

هل عند من أحببت تنويل أم لا فان اللوم تضليل

ودعبل الخزاعى الذى لم يسلم من لسانه أحد من الخلفاء ولا الوزراء ولا الولاة فهجا الرشيد وهجا المأمون وهجا المعتصم ومدح العلويين أجود مدح .[1] ومن أشهر مدائحه تائيته البديعة التى يمدح بها على بن موسى بخراسان ومطلعها :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات

وفيها يقول :

قفا نسأل الدار التى خف أهلها متى عهدها بالصوم والصلوات

وأين الألى شطت بهم غربة النوى أفانين فى الآفاق مفترقات

هم أهل ميراث النبى إذا اعتزوا وهم خير قادات وخير حماة

وأدب الخوارج أدب مذهب جديد تغذى بالعقيدة الإسلامية وتأثر بالاتجاهات السياسية فكان فى معانيه وأفكاره صدى لهذين التيارين الدينى والسياسى . ويمتاز هذا الأدب بالثورية والحماس والروح العربى الأصيل والعاطفة الدينية الصادقة والجرأة والصراحة والتحدى والواقعية المرتبطة بالبطولة والتضحية وتتجلى الوحدة الفنية بوضوح فى شعر الخوارج إذ تتحول فنون الأدب عندهم إلى صورة فنية تلائم مذهبهم وتتمشى مع مبادئهم . وشعر الخوارج فى أغلبه شعر مقطوعات

(١) ضحى الإسلام جـ٣ ص٣١٠ .

يارب إن عظمت ذنوبى كـــثـــرة فلقـــد علمت بأن عـــفـــوك أعظم
إن كـــان لا يرجـــوك إلا مـــحـــسن فـبـمن يلوذ ويسـتـجـيـر المجـرم ؟
أدعـوك ربّ كـمـا أمـرت تضـرعـا فـــإذا رددت يدى فـــمن ذا يرحم ؟
مـــالى إليك وســـيلة إلا الرجـــا وجـمـيل عـفـوك ثم إنى مـسلم[1]

أما أدب المعتزلة فهو أدب الثورة الفكرية والتحرر والانطلاق . وقد كان لأدبهم أثر بالغ فى تحرير العقول والأفكار ورقى فنون القول والجدل وتأسيس آداب البحث والمناظرة وبذلك عمقت موضوعات الأدب ودقت معانيه وغزرت مادته وتحررت أساليبه ونشطت فنونه وتعددت أجناسه وأنواعه فقد اشتمل على الكتب الجامعة والبحوث القيمة والمقالات المطولة والرسائل المختلفة والخطب البارعة والمحاورات والمجادلات والمناظرات والحكم والأشعار ... وكان لاعتناق كثير من الأدباء والشعراء لفكرة الاعتـزال أعظم الأثر فى إثراء الأدب العربى بالأفكار العقلية والنظرات التأملية فى الطبيعة والكون والحياة وتوليد المعانى وتعميقها وبراعة عرضها والالتزام بالوحدة الموضوعية والتكامل الفنى وأصول المنطق الصحيح . كما كان لمذهب المتكلمين تأثير واضح فى استخدام مصلحات علم الكلام وأساليبه فى الشعر يقول العباس بن الأحنف :

إذا أردت سلوا كـــان ناصـــركم قلبى ومـا أنا من قلبى بمنتـصـر
فـــأكـــثـــروا أو أقلُّوا من إســـاعتكم فكل ذلك مـــحـــمـــول على القـــدر

ويقول أبو نواس :

ان اسم حـسن لوجـهـهـا صـفـة ولا أرى ذا فى غـيـرها اجـتـمـعـا
فـهى اذا سـمـيت فـقـد وصـفت فـيـجـمع الاسم مـعنيين مـعـا

(١) ديوان أبى نواس ص١٦٨ ط مصر ١٩٥٣ وانظر زهديات أبى نواس تحقيق على الزبيدى ص٦٩ .

يستمد نهجه من واقع حياتهم القلقة المشغولة بالكفاح والصراع والضربات الخاطفة المتوالية فى سبيل المبدأ والغاية .[1]

والمرأة الخارجية مناضلة جريئة شاركت الرجل وباشرت الحرب وصرعت الأبطال وتخلت عن متعة الحياة وزينتها[2] . وكان لها أدب قوى تجردت فيه من طبيعة الأنوثة وتمثل فيه روح قوى من جلال العقيدة وعظمة اليقين وروعة الاقدام ونبل التضحية[3] . فهذه هى الفارعة الخارجية ترثى أخاها الوليد بن طريف الذى خرج بالجزيرة على عهد الرشيد فتقول :[4]

فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من قنا وسيوف

ولا الذخر إلا كل جرداء صلدم ... معاودة للكرّ بين صفوف

ثم تقول :

فإن يك أرداه يزيد بن مزيد ... فرب زحوف لفها بزحوف

عليه سلام الله وقفا فإننى ... أرى الموت وقّاعا بكل شريف

وأدب المرجئة أدب سلبى كمذهبهم يسرى فيه بكثرة روح الاستسلام والخضوع ومسايرة كل الأهواء . وقد فتح هذا الأدب باب الضراعة والتوبة والتماس العفو مهما عظمت الذنوب .[5]

وقد تأثر كثير من الشعراء بآراء المرجئة فى توقع عفو الله ورجاء رحمته مع كثرة الذنوب والمعاصى ، يقول أبو نواس مبتهلاً :

---

(١) أدب الخوارج بين النزعة الدينية والثورة السياسية لعبد الله حسين ص٤٢ " رسالة " .
(٢) أدب الخوارج لمحمد جمعة ص٥٩ رسالة مخطوطة بمكتبة كلية اللغة .
(٣) أدب الخوارج بين النزعة الدينية والثورة السياسية ص٤١ .
(٤) ضحى الإسلام جـ٣ ص٣٤٦ .
(٥) ضحى الإسلام جـ٣ ص٣٢٨ ص٣٢٩ .

يشير بذلك إلى مسألة كلامية مشهورة وهى أن الصفة هل هى عين الموصوف أو غيره ؟[1] وحين صرح بشار بأن ابليس خير من آدم وأن النار خير من الأرض :

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجّار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سموّ النار

تصدى لدعوته صفوان الأنصارى شاعر المعتزلة فبين بالدليل أن الأرض أكرم عنصراً من النار لما تحتويه من أعاجيب وأسرار وأنها آية من آيات الله الدالة على وحدانيته :

زعمت بأن النار أكرم عنصرا وفى الأرض نحيا بالحجارة والزند
ويخلق فى أرحامها وأرومها أعاجيب لا تحصى بخطر ولا عقد
وفى القعر من لجّ البحار منافع من اللؤلؤ المكنون والعنبر والورد
كذلك سر الأرض فى البحر كله وفى الغيضة الغناء والجبل الصلد

ثم يقول آخيراً :

فذلك تدبير ونفع وحكمة وأوضح برهان على الواحد الفرد[2]

" لقد كان المعتزلة من أوائل مفكرى المسلمين الذين اطلعوا على الثقافة اليونانية وحاولوا أن يتسلحوا بها وبالمنطق اليونانى ضد أعداء الدين ونتيجة لذلك اصطبغ تفكيرهم بصبغة هذه الفلسفة فى كثير من الأحيان وكانوا وسطاء فى نقل الثقافة الهلينية إلى البيان العربى " [3] .

(١) أخبار أبى نواس لابن منظور جـ١ ص١٣ ص١٤ .
(٢) البيان والتبيين جـ١ ص١٧ .
(٣) التيارات الأجنبية فى الشعر العباسى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى لعثمان موافى ص٢٩٧ رسالة دكتوراه مخطوطة .

ويعبر أحمد أمين عن أدب المعتزلة وقيمته الفنية وأثره بقوله :[1]

" لقد أغنى المعتزلة الأدب من حيث المعانى وقوة العقل وسعة الذهن وتوليد الأفكار العقلية والنظر إلى الكون وإلى الطبيعة وإجراء التجارب عليها ودلالتها على خالقها وغاصوا على المعانى غوصا ونقلوا الأدب من لفظ رشيق إلى معنى عميق ومن عبارات مجملة منمقة إلى موضوعات واسعة مسهبة . وبعد أن كان الأدب خلوا من الموضوع جعلوا له موضوعا فمن موضوعه الحيوان والبخلاء والإماء والقيان إلى غير ذلك من موضوعات لم تكن فى الأدب قبل المعتزلة " .

وأدب الموالى بدوره أدب دعوة عقائدية سياسية متعصبة وملل ونحلل دينية متعددة تعمل على استعادة الصفحات الماضية التى تتمثل بالأخص فى الكسروية الفارسية وما كان لها من عقائد ونظم حكم وأساليب حياة وعظمة جاه وسلطان وأدب الموالى يدور بين قصائد ومحاورات وكتب وكانوا يخلطون بين الثقافة العربية وثقافاتهم الخاصة الموروثة ولذلك تعددت الاتجاهات المختلفة فى أدب الموالى وظهرت بوضوح تلك الملامح المميزة والسمات الخاصة من السهولة واليسر وحسن التنسيق وجمال التأنق والميل إلى الاستقصاء واصطناع الزخرف وظهور النزعة القصصية والحرص على الإبداع والتجويد مع استخدام كثير من العامى والدخيل والوقوع فى بعض الأخطاء النحوية واللغوية الخاصة من غير المتمكنين من شعراء الموالى كان أدب الموالى انتهازيا متسللا فتراهم يتملقون ويخادعون ولم يكونوا غالبا على صراحة وجرأة إلا حين اشتد نفوذهم وقويت شوكتهم فى العهد الأول لقيام الدولة العباسية حين أخذت رياح الشعوبية تهب عالية عاتية متمردة كما نرى فى شعر بشار والخريمى والمتوكلى وأبى نواس ... .

---

(١) ضحى الإسلام جـ٣ .

يقول بشار :[1]

هل من رسول مخبر ... عنى جميع العرب
من كان حيا منهم ... ومن ثوى فى التراب
بأننى ذو حسب ... عال على ذى الحسب
جدى الذى أسمو به ... كسرى وساسان أبى
وقيصر خالى إذا ... عددت يوما نسبى

لكنه من قصيدة أخرى يقول :[2]

نفسى الفداء لأهل البيت إن لهم ... عهد النبى وسمت القائم الهادى
لم يحكموا فى مواليهم وقد ملكوا ... حكم المحل ولا حكم ابنه العادى
لكن ولونا بإنصاف ومعدلة ... حتى هجدنا وكنا غير هجاد
صلت لكم عجم الآفاق قاطبة ... فوج وفود وفوج غير وفاد

ويقول أبو نواس :[3]

إذا ما تميمىٌ أتاك مفاخرا ... فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب
تفاخر أبناء الملوك سفاهة ... وبولك يجرى فوق ساقك والكعب

ويقول :[4]

دع الأطلال تسفيها الجنوب ... وتبكى عهد جدتها الخطوب
وخل لراكب الوجناء أرضا ... تخب بها النجيبة والنجيب

---

(١) ديوان بشار جـ١ ص٢٧٧ .
(٢) ديوان بشار جـ٢ ص٢٩٨ - ٣٠٦ .
(٣) ديوان أبى نواس ص١٣٠ .
(٤) ديوان أبى نواس ص٢٤٥ .

ولا تأخـــذ عن الأعـــراب لهـــوا ولا عـيـشـا فـعـيـشـهم جـديب

ذر الألبـــان يشـــربهـــا أناس رقـــيق العـــيش عندهم غـــريب

بأرض نبـــتـــهـــا عـــشب وطلح وأكـــثـــر صـــيـــدها ضـــبع وذيب

إذا راب الحليب نبل عليـــــه ولا تحـــرج فـــمـــا فى ذاك حـــوب

فـــأطيب منه صـــافـــيـــة شـــمـــول يطوف بكأســـهـــا ســـاق أريب

وإذا كانت هناك تيارات من اللهو والمجون ونزعات من الزندقة والإلحاد قد ظهرت آثارها فى الأدب العربى عموما وفى الشعر بخاصة فقد كان هناك أيضا تيار مضاد من نزعة زاهدة معرضة عن الدنيا مقبلة على الله منصرفة عن اللهو وجلة من أهوال يوم الحساب تترقب الفناء والزوال وتخشى الموت وسوء المآل وكانت هذه النزعة الزاهدة ردّ فعل طبيعى لتيار مضاد من العبث واللهو والمجون والتشكيك والاضطراب . وهى نزعة لم توجد من عدم بل انها كانت فى المقام الأول بتأثير تعاليم الإسلام وما جاء به القرآن الكريم من دعوة ملحة إلى الإعراض عن الدنيا وزخرفها الباطل ونعيمها الزائل والانصراف إلى الله والعمل ليوم الحساب يوم يقوم الناس لرب العالمين يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ويعض الظالم على يديه ويقول الكافر يا ليتنى كنت تراباً .

وليس هناك ما يمنع من أن يكون فى الشعر الجاهلى أشباه لهذه النزعة الزاهدة وأن تروى أشعار لبعض الجاهليين وفيها حديث عن فناء الدنيا وزوال نعيمها والمصير المحتم لبنى الإنسان فيها والتذكير بمن مضى وانقضى من الأجيال ، كما فى خطبة قس بن ساعدة فى عكاظ : " مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالاقامة فأقاموا أم تركوا هناك فناموا " :

فـــى الـــذاهـــبـــين الأولـــين مـن القـــــرون لنا بصـــــائر

لـمـا رأيـت مـــــــــــــواردا للمـــوت ليس لهـــا مـــصـــادر

ورأيت قـــــومـى نحـــــوها تمضى الأكـــابر والأصـــاغـــر

لا يـــرجـــع المـــاضـــى ولا يبـــقى من البـــاقين غـــابر

أيـقـنـت أنـى لا مـــــحـــــالـة حـيث صـار القـوم صـائر[1]

وفى ذلك يقول المستشرق .. كارلو نلينو .. عن عدى بن زيد العبادى النصرانى أن دينه حمله مراراً عديدة على ذكر زوال أمور الدنيا كلها وذكر ما هو قريب من الزهد فى بعض قصائد لطيفة ... ويقرر أنه ليس من البعيد أن يكون شعر عدى بن زيد ومن سلك منهجه من القدماء قد صار أنموذجا للمتأخرين فى وصف فناء الأمور الدنيوية وذكر عواطف الزهد الناشئة عن اعتباره .[2] ونحن بدورنا لا نستبعد شيئا من هذا الذى يذكره نلينو وأمثاله لكننا بالتالى نقرر أن الإسلام بتعاليمه وآرائه وقرآنه قد ترك للمسلمين مددا لا ينقطع وثروة لا تنفذ ومعينا لا ينضب فى هذا المجال وهذا هو الأصل وما عداه من المؤثرات تبع . والحياة الإسلامية منذ عهدها الأول حافلة بالزهاد والمتعبدين والحكماء والواعظين والذين باعوا أنفسهم لله وأعرضوا عن زيف الحياة الدنيا وعبروا عن ذلك فى خطبهم ومواعظهم وقصصهم وأشعارهم وكان سلوكهم وجهادهم لأنفسهم قمة القمم وأسمى الغايات فى هذا المجال وقد أخذ هذا الاتجاه يقوى بتأثير عوامل كثيرة حتى أصبح مذهبا يرتكز على أسس راسخة وأصول ثابتة وعناصر متآلفة وأصبحت هناك ثقافة إسلامية عتيدة تمضى فى تيارها الجارف حاملة فى مجراها

(١) الأدب العربى بين الجاهلية والإسلامية ص٩٩ .
(٢) تاريخ الآداب العربية ٧٤ – ٧٨ .

ما يصادفها من أفكار وفلسفات ويستمر التيار متدفقا لا يلين ولا يضعف يطرد عنه كل دخيل زائف ويبقى كل ما هو أصيل مكين راسخ وفى ذلك يقول جيوم " وتساؤلنا إلى أى حد كان المتصوفة متأثرين بعوامل ودوافع خاصة عن الإسلام أمر لا أهمية له فالمؤكد أن الإسلام نفسه بعقيدته وصومه وذكره كان أساس حياتهم " [1] ويميل محمد خلف الله أحمد إلى هذا الرأى حين يتلمس مصادر زهد أبى العتاهية فى جداول الحياة الإسلامية العربية المشتركة ويرد مصادره إلى القرآن الكريم وأحاديث الرسول وأقوال الزهاد والعباد الذين عاصرهم .[2] أما أنيس المقدسى فإنه يرد نزعة الزهد إلى روح الشرق الدينية بصفة عامة وأساسه احتقار الحياة الدنيا وتعظيم الآخرة .[3] فهو يرجع التأثير إلى روح دينى قد أذكاه الدين دون تحديد ، وكان له أثره فى تكوين شعوب الشرق وارتباطها بقوى غيبية ترى فيها الملجأ والملاذ ، ومع إيماننا بتأثير الإسلام الفعال فى هذه الحركة الزاهدة وحسن توجيهها فإننا لا نستبعد تأثير الثقافات الأجنبية الوافدة فى مجتمع جديد قد انفتح على الدنيا بأسرها واستوعب كل حضارة ومدنية وأضاف المزيد وكان مصطرعا لتيارات شتى وثقافات عديدة وآراء ومذاهب تضرب إلى أعماق سحيقة من تاريخ أمم وأجناس شتى كانت لها أقدارها على مر الأجيال والعصور . أقول إننا لا نستبعد تأثير مثل هذه الثقافات فى نموالفكر الزهدى ، ولكن ما نستبعده وننكره أن تكون هذه الثقافات هى التى صنعت هذه الحركة الزاهدة فى الأدب العربى وأوجدتها من العدم . ونرى باحثاً كجولد زيهر يقرر أن الفكرة الدينية المسماه بالزهد التى صادفت الإسلام بالمعنى السنى والتى لا تتفق مع السمات المألوفة التى

---

(١) الإسلام تأليف الفريد جيوم ترجمة هداره ص١٣٨ .
(٢) دراسات فى الأدب الإسلامى ص٩٨ .
(٣) أمراء الشعو فى العصر العباسى ص١١٩ ص١٢٢ .

نعرفها فى التصوف الإسلامى تكشف عن آثار قوية تدل على تسرب المثل الأعلى للحياة عند الهنود إلى الإسلام [1] وأيا كانت حقيقة هذا المثل الأعلى الذى يتحدث عنه جولد زيهر فإن هناك بغير شك ثقافة هندية منقولة الى اللغة العربية ويذكرها ابن النديم فى " الفهرست " [2] ولكن لا نسلم له رأيه بأن لمثل هذه الثقافة تأثيراً خاصاً فى حركة الزهد . ونرى باحثاً آخر هو " كارل بروكلمان " يتحدث عن تأثير وعاظ النصارى ويقرر أنه ليس من قبيل المصادفة أن تذكرنا المعانى الشعرية فى ديوان أبى العتاهية بنظرات الشاعر السريانى يعقوب السروجى ، وأن " رشر " فى ترجمته الالمانية لديوان أبى العتاهية قد دل على المعانى والأفكار النصرانية فى زهدياته[3] ، وشوقى ضيف يؤيد هذا الاتجاه[4] وهو اتجاه خاطئ من أساسه . وأيا كان الدافع إلى التحمس لمثل هذه الآراء فإننا - كما قلت - لا نستبعد نوعا ما من التأثير فى نمو الفكر والمعانى الزهدية ، لكن ما ننكره حقا أن يكون وجود الزهد مذهبا فى الشعر العربى مرتبطا بمثل هذه المؤثرات . وقد كان على رأس هذه الموجة الزاهدة فى الشعر العباسى أبو العتاهية . ويذكر ابن الجراح فى كتابه " الورقة " عبد الله بن المبارك الذى تكلم فى الزهد والنصائح[5] ويذكر ابن شاكر الكتبى شفيق البلخى م١٩٤هـ الذى كان له كلام معروف فى التوكل[6] وعمرو بن المغيرة الصيرفى الكوفى المعروف ببهلول المجنون الذى كان معاصراً لهارون الرشيد وقد توفى عام ١٩٠هـ[7] ومن شعره الذى يروى له قوله :

(١) العقيدة والشريعة ص١٤٢ .
(٢) الفهرست ص٤٢٤ - ٤٨٤ - ٤٨٧ .
(٣) تاريخ آداب اللغة العربية جـ٢ ص٣٥ .
(٤) التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص٣٤ ، ٣٥ .
(٥) الورقة ص١٤ وما بعدها .
(٦) فوات الوفيات جـ١ ص٢٤٠ .
(٧) فوات الوفيات جـ١ ص١٠٥ .

يا من تمتع بالدنيـــا وزينتـــهـــا ولا تنـام عن اللـذات عـــــيناه

شـغلت نفـسك فـيـمـا لست تدركـه تقـــول لله مـــاذا حين تلقـــاه[1]

ومن شعره الذى يكشف عن طبيعته الزاهدة وكرم نفسه ونبل تسامحه قوله وقد آذته الصبية بالحجارة :

حـــســـبى الله توكلت عليـــه من نواصى الخلق طرا بيـــديه

ليس للهـــارب فى مـــهـــربه أبدا مـن راحـــــة إلا إليـــــه

ربّ رام لى بأحـــــجـــــار الأذى لم أجـــد بدّا من العطف عليـــه[2]

ويذكر الخطيب البغدادى سعيد بن وهب[3] وكلثوم بن عمرو العتابى ويقول عنه كان " يتجنب غشيان السلطان قناعة وصيانة وتقززاً وكان يلبس الصوف ويظهر الزهد " [4] كما يذكر ابن الخبازة ويقول إن له شعرا كثيرا فى الزهد والرقائق والتذكير بالموت والمواعظ " [5] ويذكر ابن الجوزى الفضيل بن عياض .[6] وبشـر بن الحـارث .[7] وأبا بكر بن عـيـاش ويقـول عنه إنه من زهاد الكوفـة المشهورين[8] كما يذكر سعدون المجنون ويروى له قوله :

تركت النبـــيـــذ لأهل النبـــيـــذ وأصـــبـــحت أشـــرب مـــاء قـــراحـــا

لأن النبـــيـــــذ يذل العـــــزيز ويكسـو الوجـوه النضـار الصبـاحـا

فـــإن كـــان ذا جـــائزا للشـــبـــاب فـمـا العذر فيه إذا الشيب لاحا[9]

ويذكر ابن المعتز العتاهية بن أبى العتاهية ويقول إنه كان صحيح الدين ورعا وكان محمود السيرة حسن الصفة .[9] ويروى له :

(١) فوات الوفيات جـ١ ص١٠٥ .
(٢) نفسه .
(٣) تاريخ بغداد جـ٩ ص٧٣ ، ٧٤ .
(٤) نفسه جـ١٢ ص٤٨٨ .
(٥) نفسه جـ٥ ص٤٢٥ .
(٦) صفة الصفوة جـ٢ ص١٨٩ .
(٧) نفسه .
(٨) نفسه جـ٣ ص٩٦ .
(٩) نفسه جـ٢ ص٢٨٨ ، ٢٩٠ .

قـد أفلح السـاكت الصـمـوت كـلام واعى الكلام قـوت

مـا كل نطق له جـواب جـبـاب مـا يكره السكوت

يا عـجـبى لامـرىء ظلوم مـسـتـيـقن أنه يموت[1]

كما يذكر ابن المعتز يحيى بن المبارك اليزيدى ويقول عنه إنه لم يعرف عنه لهو ولا مجون وأنه كان عفيفا تقيا . وقد قال بمكة أشعاراً كثيرة فى الموعظة والحكمة .[2] ومن الشعراء الزهاد محمد بن كناسة يقول عنه الأصفهانى " كان امرأ صالحا لا يتصدى لمدح ولا لهجاء "[3] ومنهم محمود بن الحسن الوراق وهو ممن يروى لهم شعر كثير فى أدب الزهد والوعظ التعليمى والأمثال والحكم ومنه قوله :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا محال فى القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع[4]

وهو القائل :

ونو الجهل يأمن أيامه وينسى مصارع من قد خلا

فإن بدهته صروف الزمان ببعض مصائبه أعولا

ولو قدم الحزم فى نفسه لعلمه الصبر عند البلا[5]

ويذكر ابن المعتز فى طبقاته محمد بن يسير الرياشى ويقول إن له حكما كثيرة ومواعظ حسنة[6] ومحمد بن يسير كان يشبه أبا العتاهية من وجوه فقد روى له شعر يدل على زهادة وتنسك وقد كان ماجنا هجاء خبيثاً [7] . وروى له الجاحظ

---

(١) طبقات الشعراء ص٣٦٥ .
(٢) نفسه ص٢٧٣ ، ٢٧٥ .
(٣) الاغانى جـ١٣ ص٢٣٧ .
(٤) الكامل للمبرد ص٢٣٤ .
(٥) طبقات ابن المعتز ص٣٦٨ .
(٦) طبقات ابن المعتز ص٢٨٣ .
(٧) الاغانى جـ١٤ ص١٧ .

شعراً فى المجون كما يروى له شعراً فى الزهد .[1] كما أن الجاحظ يسلكه فى عداد البخلاء[2] وهو فى ذلك كله يتفق مع أبى العتاهية فيما عرف عنه من مجون ولهو فى شبابه ومستهل حياته وما اشتهر به من البخل وما ذاع به صيته من زهد .

ومن بين النساء المتعبدات الزاهدات يذكر صاحب شهيدة العشق الإلهى :

" ريحانة " و" حيونه " و" ميمونة " [3] وقد روى لهن شعر كثير فى الإعراض عن الدنيا ونعيمها الزائل والانصراف عن شهوات الحياة والتعلق بذات الله ومناجاته وإننا لنلمح فى هذا الشعر رقة وعذوبة ووجدا وحنينا وصفاء وطهرا مما ينبىء عن صدق العاطفة وعمق الشعور وحيوية القلوب وشفافية النفوس وتألق الوجدان . ولنستمع إلى ميمونة وهى تنشد بلغة العارفين الواصلين :

قلوب العارفين لها عيون ... ترى ما لا يراه الناظرونا
وألسنة بسر قد تناجى ... تغيب عن الكرام الكاتبينا
وأجنحة تطير بغير ريش ... إلى ملكوت رب العالمينا
فتسقيها شراب الصدق صرفا ... وتشرب من كئوس العارفينا[4]

وممن يذكر فى هذا الباب مع شهرته بالزندقة والإلحاد صالح بن عبد القدوس فقد كان شعره وعظا وأمثالا وحكما . ويقول ابن المعتز عنه " أما الرجل فله فى الزهد فى الدنيا والترغيب فى الجنة والحث على طاعة الله عز وجل والأمر

(١) البيان والتبيين جـ٣ ص٨٧ ، ١٢٧ .
(٢) البخلاء ص١٨١ .
(٣) شهيدة العشق الالهى لعبد الرحمن بدوى ص١١٣ - ١١٧ .
(٤) نفسه ص١١٧ .

بمحاسن الأخلاق وذكر الموت والقبر ما ليس لأحد وكان شعره كله أمثالاً وحكماً " [1] ، ويروى له قوله :

وليس يعجز المرء إخطاؤه الغنى ... ولا باحتيال أدرك المال كاسبه

ولكنه قبض الإله وبسطه ... فلاذا يجاريه ولا ذا يغالبه

إذا كمل الرحمن للمرء عقله ... فقد كملت أخلاقه ومناقبه[2]

وقوله :

فوحق من سمك السماء بقدرة ... والأرض صيَّر للعباد مهادا

إن المصر على الذنوب لهالك ... صدقت قولي أو أردت عنادا[3]

وقد يذكر أيضا شاعر كأبي نواس مع شهرته باللهو والعبث والمجون واتهامه بالزندقة والإلحاد فقد كانت له زهديات وابتهالات أقبل فيها على الله ورجا عفوه وطمع في رحمته وأعرب عن أسفه وندمه وذلك حين كانت تدركه الصحوة وتعتريه اليقظة من حين إلى حين وبخاصة في تلك المرحلة المتأخرة من العمر بعد طول عصيان وإسراف حيث يستشعر الإنسان الندم وتزايله الغشاوة شيئا فشيئا بعد طول تجربة ومعاناة والطمع في عفو الله ورحمته قائم بإخبار الله عز وجل " قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ... " [4] وليس في ذلك موضع لعجب أو محل لإنكار أو مجال لادعاء بأن تكون زهديات أبي نواس من صنع بعض الزهاد بقصد اختلاق

---

(١) طبقات ابن المعتز ص٩١ .
(٢) نفسه ص٩٢ .
(٣) نفسه .
(٤) سورة الزمر الآية ٥٣ .

الأمثال للعبرة وقوة التأثير .[1] وفى رأيى أن هذه الزهديات النواسية استجابة طيعة لحركة طبيعية تصدر عن نفسية قلقة حائرة جرفها تيار عات تناهى بها إلى حيث لا يرجى خلاص لكنها بالفطرة النقية تتلمس طريقا للنجاة على شعاع من رحمة الله لا يخبو فى قلب الإنسان استمع إليه يقول :

أيها الغافل المقيم على السهو ولا عذر فى المقام لساهى

لا بأعمالنا نطيق خلاصا يوم تبدو السمات فوق الجباه

غير أنى على الإساءة والتفريط راج لحسن عفو الإله[2]

ويقول :

يا نواسى توقر وتعزز وتصبر

ساءك الدهر بشىء وبما سرك أكثر

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر[3]

ويقول :

يا طالب الدنيا ليجمعها جمحت بك الآمال فاقتصد

والقصد أحسن ما عملت له فامسك سبيل الخير واجتهد[4]

وبعد فهناك أمور ينبغى أن أشير إليها :

أولاً : أن هذه النزعة الزاهدة أصبحت مذهباً واتجاها فى الشعر العباسى

(١) انظر زهديات ابى نواس ص٢٥ ، ٢٦ واتجاهات الشعر العربى ص٣١٦ .
(٢) زهديات أبى نواس ص٥٦ .
(٣) الديوان ص١٩٦ .
(٤) زهديات أبى نواس ص٤٠ .

يلتزم به ويتمشى مع أصول فن الشعر وتطوره مع احتفاظه بخصائصه المميزة وسماته الخاصة .

ثانياً : أن هذه النزعة الزاهدة كانت رد فعل حتمى لطبيعة المجتمع العباسى وما تسيطر عليه من تيارات وما تسوده من متناقضات ، كما كانت رد فعل حتمى لحياة خاصة لاهية عابثة تردّى اليها كثير من الشعراء فى مطلع حياتهم ثم أدركتهم الصحوة بعد ذلك فكان التبتل والتزهد والانصراف إلى الله ... والاتجاه إلى هذا الغرض الشعرى .

ثالثاً : أن تناقضاً عجيباً قد يبدو واضحاً بين ما يردده هؤلاء الشعراء من شعر زاهد يدعو إلى الإقبال على الله والإعراض عن متع الحياة وبين سلوكهم العملى الذى لا يتفق مع جوهر الزهد وحقيقته .. وذلك فى رأيى يرجع إلى هذه النزعة الواقعية التى تفرض نفسها وتبدو مؤثرة بكل ما لها من ثقل فى مجتمع تغلى فيه مراجل المادية وفى نفس الوقت تتوهج القيم المعنوية والروحية وتتألق المثل العليا وبين هذه وتلك تتأرجح موازين السلوك بغير انضباط ... .

رابعاً : أن كثيرا من الباحثين خاضوا طويلا فى البحث عن أصول الزهد وعناصره وينابيعه وروافده ومذاهبه واتجاهاته ولكنهم لم يتوقفوا ولو قليلاً عند الملامح الفنية لشعر الزهد فى روحه وجوهره وطبيعته وخصائصه وما يميزه عن غيره من الأغراض فى الشكل والمحتوى وإلى أى مدى يتفق أو يختلف مع الأصول الفنية للأغراض الشعرية الأخرى .. وهذا ما حرصت على تلافيه واحترست من الوقوع فيه عند حديثى عن أبى العتاهية ونزعته الزاهدة ومذهبه الفنى فى الشعر ... .

(٢)

الفكر السياسي في القرنين الثاني والثالث وأثره في الشعر :

انتقل الحق فى الإمامة من البيت العلوى إلى البيت العباسى على يد أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية زعيم الشيعة الكيسانية الذى عهد إلى محمد ابن عبد الله بن العباس بالزعامة وتولى قيادة الدعوة .[١] وقد كان محمد بن على هذا على درجة من الحصافة وسعة العقل وبعد النظر فهيأ الأذهان وأعد النفوس واستمال القلوب ورتب الأفكار ودبر وقدر ونهض بالدعوة نهضة قوية فتية على هدى وبصيرة وعين النقباء والدعاة ووجههم إلى الولايات الإسلامية وأوصى بأن تكون الدعوة سرا ووضع لهم منهجا وقانونا يسيرون عليه ويلتزمون به على أن تكون الدعوة للرضا من آل محمد دون تسمية أحد حماية لشخصه ومنعا من إثارة الأحقاد بين العلويين والعباسيين .

وقد رأى محمد بن على أن خير مكان يصلح للدعوة إنما هو الكوفة وخراسان فالكوفة مهد التشيع لآل البيت من قديم ويمكن أن تكون نقطة اتصال بين الحمية مقر الإمام وبين مركز الدعوة فى خراسان ، وخراسان تسهل الدعوة فيها وتجد منطلقا رحباً لأن الفرس يحقدون على بنى أمية وهم على استعداد للسير فى ركاب أعدائهم طمعا فى الظفر بمنزلة أعلى ومكانة أسمى وهم يفهمون فكرة التشيع لآل البيت لقربها من نظرية الحق الملكى المقدس التى يعتنقونها ، ولأن خراسان بمأمن من سطوة الحكم الأموى لبعد الشقة بينها وبين مقر الخلافة بدمشق ، وإذا علمنا أن الحسين بن على كان قد تزوج من " شهربانوه " بنت "يزدجرد " آخر ملوك آل ساسان أمكننا أن نفهم هذا التقارب والتلاقى بين الفرس والدعوة العلوية العباسية .[٢] وقد بذل الدعاة أقصى ما يمكن أن يبذل من جهد

---

(١) الفخرى لمحمد بن على بن طبا طبا ص١٤٣ . ط : دار بيروت

(٢) تاريخ الاسلام السياسى لحسن ابراهيم جـ٢ ص٢٩ ط : النهضة المصرية .

تحت ستار التجارة أو الحج إلى مكة وتحملوا فى سبيل ذلك ما لا يطاق من الضرب والقتل والتشريد وكان ذلك فى المرحلة الحاسمة التى اشتد فيها النزاع وازداد عنف الصراع والتقى الأمويون بالعباسيين وجها لوجه على عهد إبراهيم بن محمد بن على العباسى وداعيته فى خراسان " أبى مسلم الخراسانى " ثم على عهد أبى العباس عبد الله بن محمد من بعده حيث تمكن أبو سلمة الخلاّل الداعية العباسى من النزول بجنده بمدينة الكوفة فى أوائل عام ١٣٢هـ وقد ارتفع شعار العباسيين المجلل بالسواد فوق حصون دمشق فى أخريات ذاك العام بعد أن دالت دولة بنى أمية ... ويحدثنا المسعودى عن الأسباب التى أدت الى زوال ملك بنى أمية فيقول[1] " سئل بعض شيوخ بنى أمية ومحصليها عقب زوال الملك عنهم الى بنى العباس : ما كان سبب زوال ملككم ؟ قال : إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا وتحومل على أهل خراجنا فتخلوا عنا وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا وأمضوا أمورا دوننا أخفوا علمها عنا وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا واستدعاهم أعادينا فتظاهروا معهم على حربنا وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا ، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا ... " .

وما لم يقله قائلهم : أنه ملك أخذ ظلما وبغيا وقامت دعائمه على العصبية القبلية والاغتصاب والقهر فلطالما سفكت دماء طاهرة وصلبت أجساد كانت فى سبيل الله رائحة غادية واحترزت رؤوس كانت فى المعضلات خير مفكرة ومدبرة ، ولطالما أزهقت أرواح بريئة فكان كذلك أخذ ربك إنّ أخذه أليم شديد .

قامت الدولة العباسية وكان يكتنفها خطر عظيم بعضه يتمثل فى بنى أمية وأتباعهم وبعضه الآخر يتمثل فى العلويين وأشياعهم وآمالهم فى الخلافة فكانت

---

(١) مروج الذهب جـ٢ ص١٩٤ .

سياسة الفتك والبطش والأخذ بالشبهة والعقاب بالظنة من ألزم الأمور لتأمين الدولة واستتباب الأمن فيها وحسم ما يعترضها من مشكلات . ولقد كانت تلك سياسة متقدمة إبان الدعوة وأخذ البيعة لبنى العباس يدل على ذلك ما جاء فى وصية لإبراهيم الإمام بن محمد بن على العباسى موجهة إلى أبى مسلم الخراسانى وفيها يقول [1] " إنك رجل منا أهل بيت ... احفظ وصيتى وانظر إلى هذا الحى من اليمن فالزمهم واسكن بين أظهرهم فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم واتهم ربيعة فى أمرهم ، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار واقتل من شككت فيه وإن استطعت ألا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار واتهمته فاقتله " ويحكى ابن الأثير عن أبى مسلم الخراسانى أنه قتل ستمائة ألف نفس صبرا بدون حرب فى بضع سنين وفى جملتهم جماعة من كبار الشيعة وكبار الدعاة كأبى سلمة الخلال وسليمان بن كثير كما قتل كثيرا من القواد والأمراء بالحيلة تارة وبالغدر تارة أخرى .[2] وقام عبد الله بن على العباسى بتتبع الأمويين واستئصال شأفتهم حتى نبش قبورهم ومثل بجثثهم وضربها بالسياط وأحرقها انتقاما للأئمة من آل على .[3] وقد دارت الدائرة بعد ذلك على أفراد من البيت العباسى كان منهم عبد الله بن على هذا إذ وجه إليه المنصور أبا مسلم الخراسانى فحاربه وغلبه على عسكره ثم كانت الدائرة بعد ذلك على أبى مسلم الخراسانى نفسه إذ أقدم المنصور على التخلص منه . وللمنصور شهرة بالغدر والفتك ونكث العهد حتى إن محمد بن عبد الله العلوى أجابه حين عرض عليه المنصور الأمان بقوله " أى أمان تعطينى أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله أم أمان أبى مسلم " [4] وقد اشتهر بين الناس فتك العباسيين بمن يؤيدون دولتهم ويدعون لهم ويعملون على نصرتهم ، وقد

(١) الكامل لابن الأثير جـ٥ ص١٦٥ .
(٢) نفسه جـ٥ ص١٨٣ ، جـ٢ ص٢٢٧ .
(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ٢ ص٢٠٥ .
(٤) الكامل لابن الأثير جـ٥ ص٢٥٤ .

جاء ذلك على لسان الأمين فى رسالة وجهها إلى طاهر بن الحسين وقد كان فى نصرة أخيه المأمون :

" بسم الله الرحمن الرحيم اعلم أنه ما قام لنا منذ قمنا قائم بحقنا وكان جزاؤه إلا السيف فانظر لنفسك أو دع " (١) .

وحقيقة فإن للسياسة أسلوبها ونهجها ولها ظروفها المهيمنة عليها والعوامل المؤثرة فيها ، ولو لم يكن ما كان ما قامت لبنى العباس قائمة فى فترة عظمت فيها الفتن وتعددت الأحزاب وتنوعت المذاهب وتصارعت الأهواء واستبدت بالناس الظنون وطغت الشكوك وتضاربت الآراء وخيمت الحيرة على العقول وراءت على القلوب بين أموية زائلة وعلوية متربصة ومولوية انتهازية وطائفية متحفزة مترقبة .. ولم يجد خلفاء بنى العباس بدا من أن يقفوا بحزم وصرامة إزاء هذه الحركات فنرى الخليفة المنصور يضرب بقوة على أيدى الراوندية الذين زعموا أن الروح التى كانت فى عيسى بن مريم صارت فى على بن أبى طالب ثم فى الأئمة واحدا بعد واحد إلى إبراهيم بن محمد سبط العباس عم النبى وأنهم آلهة وقد استحلوا الحرمات وعبدوا أبا جعفر المنصور .(٢) وقد حاربهم أبو جعفر فقتلهم شر قتلة لكنه لم يقض عليهم تماما فظهروا فى صور مختلفة ممثلة فى ثورات المقنعية والخرمية والأفشين والمازيار والزنادقة وهم يعتقدون بألوهية المخلوق وتناسخ الأرواح ، ويسقطون الفرائض ويبيحون الحرمات ... وقد حارب المهدى المقنع حتى قضى عليه وحارب المعتصم الخرمية كما قضى على الأفشين والمازيار فى ثورة دينية سياسية كان الهدف من ورائها الخروج على سلطة الدولة العباسية بحركات شعوبية منظمة تعمل جاهدة من أجل القضاء على الدين والدولة ، كما قضى على حركة الزط

---

(١) مروج الذهب جـ٢ ص٢١٣ .
(٢) الطبرى جـ٩ ص٣٠٧ .

وتمكن منهم بعد أن استمر أمرهم منذ أيام الفتنة التى كانت بين الأمين والمأمون وهم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وأفسدوا البلاد وأصلهم من هنود آسيا .

ومن خلال سياسة العنف نلمح شعاعا من نور يكشف عن رغبة أصيلة فى تأسيس دولة قوية لها كيانها العظيم ومنهجها القويم وسيادتها المكينة وسياستها الرشيدة وتقاليدها الراسخة وأسلوبها الحكيم : عدل مع الرعية وبصر بأحوالها وتنظيم لأمورها وهيمنة على أقدارها وعمل من أجل رفاهيتها ورقيها ونشر العلم والمعرفة بينها وإطلاعها على خير تراث الأمم لتشق بدورها طريقها وتعلى مجدها وتصنع حضارتها وتصوغ مدنيتها ... وقد تسابق الخلفاء فى هذا المجال بعضهم يرسى حجر الأساس فى بناء دولة بنى العباس وآخرون يشيدون البنيان ويرممون الأركان ويزخرفون ويوشون ما شاء لهم الزخرف والوشى . وتوجهت العناية كلها لمناصرة بنى العباس وخدمة أهدافها ومبادئهم ودعم دولتهم والتف الأدباء والشعراء من حولهم يؤيدونهم ويساندونهم ويمجدون زعماءهم وخلفاءهم وأمراءهم وقادتهم ويندون بأعدائهم ويدفعون هجومهم وقد شجع الخلفاء والولاة هذا الاتجاه وأغدقوا على الأدباء والشعراء وحفلت قصورهم بمجالس الأدب والشعر والمجادلات والمناظرات . ولم يكن بنو العباس وحدهم فى الميدان بل كانت هناك فرق وأحزاب وطوائف تمثل اتجاهات متعددة ونزعات مختلفة وكان لكل فرقة وطائفة شعراؤهم وأدباؤهم فاشتد الصراع وازداد عنفا وازدهر الأدب السياسى وعلت نغمته وعظم أثره وجلّ خطره وكان للشعر فى هذا المجال دوره الفعال ، وكان الشعراء بحق هم الألسنة الناطقة والأجهزة المعبرة عن اتجاهات الدولة الجديدة وأهدافها ومبادئها وما يتعارض معها من مذاهب وغايات .

وتفنن الأدباء والشعراء فى عرض بضاعتهم وأقبلوا على التراث العربى

القديم يسجلونه ويبحثونه ويتعمقون فيه وينهلون من ينابيعه وعيونه ويطورون فيه ويجددون بما يتفق والأوضاع السياسية واتجاهات الحكم الجديد . ونشطت الأحزاب والطوائف والفرق بزعمائها وعلمائها وأدبائها وشعرائها وخطبائها وكتابها وقصاصيها فكان من ذلك كله أدب عظيم حفل به التراث العربى فى هذا العصر يمتاز بالخصوبة والعمق والجدة والطرافة والحيوية والإثارة والاستقصاء والشمول وبعد النظر ورحابة الأفق وقوة الأفكار وغزارة المعانى وبراعة العرض وتنوع الفنون وجودة الأساليب وروعة الخيال . ونشطت المواهب وتعددت وتنوعت واستوعبت كل التحركات السياسية بأساليبها المتطورة ومناهجها المتقدمة .. .

نقد عبر الشعراء منذ البداية عن تخوفهم من تجمع الموالى من الفرس وغيرهم فى إطار الدعوة العباسية وهذه قصيدة بعث بها نصر بن سيار إلى يزيد ابن عمر بن هبيرة يقول فيها :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه ... وقد بينت ألا خير فى الكذب

أن خراسان أرض قد رأيت بها ... بيضا لو أفرخ قد حدثت بالعجب

فراخ عامين إلا أنها كبرت ... لما يطرن وقد سربلن بالزغب

فإن يطرن ولم يحتل لهن بها ... يلهبن نيران حرب أيما لهب[1]

كما عبر الشعراء بعد قيام دولة بنى العباس عن تخوفهم من الأموية وتجمعها وكان الخلفاء يسمعون لهم ويستجيبون لتحريضهم ، روى أن سليمان بن هاشم كان بمجلس أبى العباس السفاح هادئا مطمئنا فدخل سديف مولى بنى العباس فأنشد :

---

(١) تاريخ الطبرى جـ١ ص٩٨ .

لا يغـــرنك مـــا ترى من رجـــال إن بـــين الـــضـــلـــوع داء دويـــا

فـضع السـيف وارفع السـوط حتى لا ترى فـــوق ظهـــرها أمـــويا

فأمر السفاح من فوره بقتل سليمان ناكثا بالعهد والأمان ...[1] كما عبر الشعراء من الموالى عن استيائهم وخيبة أملهم فى الحكم العباسى بعد مقتل أبى مسلم الخراسانى ... يقول أبو العطاء السندى :

يا ليت جـــور بنى مـــروان عـــادلنا ياليت عدل بنى العباس فى النار[2]

وتمضى الأحداث تباعا وتتوالى سراعا : والأدب مع كل حدث جولة والشعر دولة ...

ونحن نقرأ التاريخ ونستنطقه فنجد حكما عباسيا يرث ملكا عريضا واسع الأرجاء متعدد الولايات كثير الأجناس خليط اللهجات مختلف البيئات يمتد من أقصى المشرق عند " كاشغر " إلى السوس الأقصى على شاطىء بحر الظلمات بطول ألفين وستمائة فرسخ ويمتد عرضا من شواطىء بحر قزوين إلى أواخر بلاد النوبة وينقسم هذا الملك العريض إلى أقسام كبرى وكل قسم يشتمل على ولايات : جزيرة العرب وتشتمل على الحجاز واليمن وعمان وهجر وإقليم العراق ويشتمل على الكوفة والبصرة وواسط والمدائن وحلوان وسامراء وهو مهد الخلافة العباسية وإقليم الجزيرة ما بين دجلة والفرات ويشتمل على ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر وإقليم الشام وإقليم مصر وإقليم المغرب واقليم المشرق ويشتمل على ما وراء النهر

(١) تاريخ الإسلام السياسى جـ٢ ص٨٢ .
(٢) الأغانى جـ١٦ ص٨٤ .

وخراسان وإقليم الديلم وإقليم الرحاب وإقليم الجبال وإقليم خوزستان وإقليم فارس وإقليم كرمان وإقليم السند ... .[1]

ملك عريض ودولة لا تماثلها دولة وحكم لا يسموا إلى منزلته حكم : حكم تلزمه بالضرورة سياسة ساهرة مرنة واعية يقظة فيها السطوة وفيها البأس والبطش وفيها الرحمة والعدل وفيها دهاء السياسة وشرعة الوسائل المبررة للوصول إلى الغايات المرجوة والأهداف المطلوبة سياسة لها أساليبها الداخلية ولها مظهرها الخارجي ... لكنها على كل حال كانت دولة عظيمة بحضارتها وأمجادها وعلومها وفنونها ومدنيتها وازدهار حياتها يقول صاحب الفخرى " واعلم - علمت الخير - أن هذه الدولة من كبار الدول ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك فكان أخيار الناس وصلحاؤهم يطيعونها تدينا والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة ثم مكثت فيها الخلافة والملك حدود ستمائة سنة "[2] . ويقول : " كانت دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم أسواق العلوم فيها قائمة وبضائع الآداب فيها نافقة وشعائر الدين فيها معظمة والخيرات فيها دارة والدنيا عامرة والحرمات مرعية والثغور محصنة وما زالت على ذلك حتى كانت أواخرها فانتشر الجبر واضطرب الأمر "[3] وكان أول من جلس على عرش الدولة العباسية أبو العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦هـ) ثم أبو جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ) ثم المهدى محمد بن عبد الله المنصور (١٥٨ - ١٦٩هـ) ثم موسى الهادى (١٦٩ - ١٧٠هـ) ثم هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ) ثم أبو عبد الله محمد الأمين (١٩٣ - ١٩٨هـ) ثم عبد الله أبو العباس المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ) ثم أبو اسحاق محمد المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧هـ) ثم هارون الواثق بالله

---

(١) انظر أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للبشارى وانظر كذلك : " محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى الدولة العباسية ص٣٣ "

(٢) الفخرى ص١٢٥

(٣) الفخرى ص١٣٤

ابن المعتصم (٢٢٧ - ٢٣٢هـ) ثم جعفر المتوكل على الله بن المعتصم (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) ثم محمد المنتصر بن المتوكل على الله (٢٤٧ - ٢٤٨هـ) ثم المستعين أحمد ابن محمد بن المعتصم بن الرشيد (٢٤٨ - ٢٥٢هـ) ثم أبو عبد الله المعتز بن المتوكل بن المعتصم (٢٥٢ - ٢٥٥هـ) ثم محمد المهتدي بالله بن هارون الواثق بن المعتصم (٢٥٥ - ٢٥٦هـ) ثم أحمد المعتمد على الله بن المتوكل (٢٥٦ - ٢٧٩هـ) ثم المعتضد أبو العباس أحمد بن أبى أحمد الموفق (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) ثم على المكتفى بن المعتضد بن أبى أحمد بن المتوكل (٢٨٩ - ٢٩٥هـ) ثم جعفر المقتدر بالله بن المعتضد (٢٩٥ - ٣٢٠هـ)[١] . وتولى عبد الله بن المعتز الخلافة ليلة واحدة بعد أن ثار الناس على المقتدر ، وبايعوه فى ٢٠ ربيع الأول ٢٩٦هـ ثم قبض عليه . هؤلاء هم حكام دولة بنى العباس فى القرنين الثانى والثالث الهجريين : منهم الخطير النابه ومنهم الخامل المغمور ، منهم الذى تألق به عهده وازدهر ، ومنهم الطائش الذى انتكس به عهده وخمل ، منهم من سار على النهج القويم ورفع لواء الحضارة وشعار التقدم ومنهم من غمرته الأحداث فتهاوى إلى الحضيض وتآمر حتى على والده ليتعجل الحكم فخسر كل شىء ولم يظفر بأدنى شىء[٢] ، ولقد اختلفت ظروف هؤلاء الخلفاء وتعددت مسالكهم واتجاهاتهم وأحاط بهم وزراء والتفت أسر وكان لهم ولاة وعمال وكانت هناك أحداث وكان للشعر خاصة دوره الفعال فى تسجيل هذه الأحداث والتأثير فيها والمشاركة فى توجيهها .. ولقد اقترنت أسماء كثير من الشعراء بعهد من عهود الحكم وفترة من فتراته فكانت بحق نجوما زاهرة فى آفاق الحياة العباسية الممتدة ...

---

(١) انظر تاريخ الإسلام السياسى الجزء الثانى ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية " الدولة العباسية " .

(٢) زهر الآداب جـ١ ص٢٦٠ ، العقد الفريد جـ٢ ص١٨٦ .

ومما أدى إلى ازدهار الأدب عموما والشعر بوجه خاص أن بعض الخلفاء والوزراء وكثيراً من رجال الدولة كانوا على درجة بالغة من التأدب والتذوق وقول الشعر وروايته فمن الخلفاء هارون الرشيد الذى كان يحب الشعر والشعراء ويميل إلى أهل الأدب .[1] وابن المعتز يعتبر أشعر أهل زمانه حسن الطبع يحسن فى النظم والنثر .[2] ومن الوزراء الفضل بن الربيع وزير الرشيد لما ولى الوزارة تهوس بالأدب وجمع إليه أهل العلم وكان أبو نواس من شعرائه المنقطعين إليه .[3] وكان الفضل بن سهل هو الوزير الأول للمأمون وسمى ذا الرياستين لجمعه بين السيف والقلم وكان عالما بآداب الملوك وكان مسلم بن الوليد نديما له قبل وزارته .[4] وأحمد بن يوسف بن القاسم وزير المأمون أيضا كان كاتبا فاضلا أديباً شاعرا فطنا .[5] كذلك كان وزيره أبو عبد الله محمد بن يزداد شاعرا فصيحا .[6] ومحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم كان نادرة زمانه عقلا وفهما وذكاء وكتابة وشعرا وأدبا .[7] ومع تعدد الخلفاء العباسيين واختلاف طبائعهم وشخصياتهم واتجاهاتهم السياسية المتغايرة فإننى أستطيع أن أقول إن هناك معالم على الطريق فى دنيا السياسة العباسية اجتمعت عليها الكلمة واتحد الهدف واتفق المسلك والمنزع :

أولاً : تتبع الأموية والقضاء عليها بالبطش والعنف وفى غير شفقة أو رحمة وبشتى الوسائل والطرق وبكل الأساليب وقد وصلوا فى ذلك إلى حد التفنن فى طرق القضاء على الأموية بأساليب تعد غاية فى البراعة السياسية والقضاء على الخصوم وكان للشعر دوره الواضح وتأثيره البالغ فى هذا المجال :

---

(١) الفخرى ص١٩٣ .
(٢) الأوراق قسم أشعار أولاد الخلفاء ص١٠٧ ، ص١١٣ .
(٣) الفخرى ص٢١١ .
(٤) الفخرى ص٢٢٥ .
(٥) نفسه .
(٦) الفخرى ص٢٢٨ .
(٧) الفخرى ص٢٣٣ ، وص٢٣٤

أصـــبح الملك ثابت الآســـاس بالبـــهـــاليل من بنى العـــبـــاس

طلبـــوا وتر هاشم فـــشـــفـــوها بعـــد مـــيل من الزمـــان وياس

لا تقـيلن عـبـد شـمس عـثـارا واقـطـعـن كل رقـلة وغـــــراس

ذلهـــا أظـهـــر التـــودد منهـــا وبهـــا منكم كـــحـــز المواسى

ولقـــد ســـاءنى وســـاء قـــبـيلى قـــربهم مّن نمارق وكـــراسى

أنـزلـوهـا بحـــيث أنزلهـــا الله بدار الهـــوان والإتعـــاس[1]

ثانيا : موالاة الفرس وفتح مجالات المناصب والحكم أمامهم وكان ذلك فى مطلع العصر العباسى الأول مما أدى إلى تعاظم النفوذ الفارسى وتغلغل الفرس فى نواحى الحياة المختلفة واستئثارهم بالأمر مع ما كان يعرف من ميولهم العلوية وقد أدى ذلك إلى التنكيل بوزراء الفرس الذين مالوا إلى العلويين فنكل السفاح بأبى سلمة الخلال ، والمهدى بيعقوب بن داود ، والرشيد بالبرامكة والمأمون بالفضل ابن سهل .[2] وقد كان لغلبة النفوذ الفارسى أثره البالغ فى المجال الأدبى فقد ألهب الصراع وأججه بين العرب والموالى وعلت النغمة التى تشيد بالمفاخر الفارسية وبنى ساسان صنّاع الحضارة وأرباب الملك والسلطان وتركز ذلك فى حركة شعوبية جامحة كان لها دورها فى إثراء الأدب العباسى فقد كثر شعر الأعاجم الذين تعلموا العربية ونظموا بها شعرا يفتخرون فيه بأنسابهم ويعتزون بأقوامهم ويسخرون من العرب ويتهكمون بهم كما ألفوا الكتب فى مثالب العرب ومناقب العجم فسعيد بن حميد البختكان ألف كتاب .. " انتصاف العجم من العرب " وكتاب " فضل العجم على العرّب وافتخارها " [3] والهيثم بن عدى من أشهر

---

(١) ابن الأثير جـ٥ ص١٧٤ .

(٢) تاريخ الإسلام السياسى جـ٢ ص١٤٤ .

(٣) الفهرست لابن النديم ص١٢٣ .

العلماء بالأخبار والرواية وضع عدة كتب فى المثالب منها كتاب " المثالب الصغير " وكتاب " المثالب الكبير " وكتاب " مثالب ربيعة " وأسماء بغايا قريش فى الجاهلية وأسماء من ولدن .[1] وألف أبو عبيدة معمر بن المثنى وهو يهودى فارسى ومن أشهر العلماء فى النحو والأخبار كتباً كثيرة تعرض فيها للعرب منها كتاب " لصوص العرب " وكتاب " أدعياء العرب " كما ألف كتاب " فضائل الفرس " [2] . وقد جمع علاّن الشعوبى وهو وراق فى خزانة المأمون جملة المطاعن على القبائل العربية فى زمن الجاهلية فى كتابه : " حلبة المثالب " [3] ولم يقتصر الشعوبيون على ذلك بل وضعوا فى الأدب قصصاً كثيرة تؤيد جانبهم وقد اختلقوها اختلاقاً .

وبتزايد نفوذ الموالى هبت رياح الشعوبية عاصفة عاتية وكان أدبهم تبعا لذلك أدبا قويا عنيفا صريحا لا يخشى ولا يرهب يحتقر العرب صراحة ويندد بحكمهم وجنسهم ولغتهم وعاداتهم وتقاليدهم بل وعقائدهم نرى ذلك بوضوح فى شعر بشار والخريمى والمتوكل وأبى نواس وغيرهم ... يقول بشار :

أحين كسيت بعد العرى خزا ... ونادمت الكرام على العقار

تفاخر يا ابن راعية وراع ... بنى الأحرار حسبك من خسار

تريغ بخطبة كسر الموالى ... وينسيك المكارم صيد فار

وكنت إذا ظمئت إلى قراح ... شركت الكلب فى ولغ الإطار[4]

والخريمى يقول :

وأن أبى ساسان كسرى بن هرمز ... وخاقان لى لو تعلمين نسيب

---

(١) الفهرست ص٩٩ ، ص١٠٠ .
(٢) الفهرست ص٥٤ .
(٣) الأغانى جـ١٢ ص١٥٠ .
(٤) الأغانى جـ٣ ص١٦٦ .

ملكنا رقاب الناس فى الشرك كلهم ... لنا تابع طمـوع القـيـاد جنيب

نسومكمو خسفا ونقضى عليكم ... بما ثار منا مـخطىء ومـصـيب[1]

والمتوكلى يقول :

أنا ابن الأكـارم من نسل جم ... وحـائز إرث ملوك العـجم

ومـحـيى الذى باد من عـزهم ... وعـفى عليـه طوال القـدم

وطالب أوتارهم جـهـرة ... فـمن نام عن حـقـهم لم أنم

مـعى علم الكابيـان الذى ... بـه أرتجى أن أسـود الأمم

فـقل لبنى هاشم أجـمـعين ... هلمـوا إلى الخلع قـبل الندم

ملكناكم عنوة بالرمـا ... ح طعنا وضـربا بسـيف حـذم

وأولاكـم الملـك آبـاؤنـا ... فـمـا ان وفـيـتم بشكر النعم

فـعـودوا إلى أرضكم بالحـجـاز ... لأكل الضـبـاب ورعى الغنم

فـإنى سـأعلو سـرير الملوك ... بحـد الحـسـام وحـرف القلم[2]

وإذا كان أدب الشعوبية والموالى عنيفا بالغ العنف فقد أدى بدوره إلى تحريك تيار أدبى سياسى مضاد يدعو إلى الاعتزاز بمجد العرب والإشادة بمفاخرهم ، وهب الغيورون من أبناء العروبة يتصدون للتيار الشعوبى المنحرف بالقصائد الشعرية والخطب النثرية والكتب المؤلفة والقصص المروية والمجادلات والمناظرات وكان من ذلك كله شعر كثير وأدب غزير . وإذا كان أبو عبيدة وهو إمام فى اللغة والشعر وعلوم العرب يمثل فكرة الشعوبية المتعصبة ضد العرب فهناك

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٣٥٣ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت جـ١ ص٣٢٣ .

الأصمعي وهو إمام أيضا في اللغة والشعر وعلوم العرب يمثل فكرة العربية والاعتزاز بالعروبة والإشادة بأمجادها .[1]

وقد رأينا الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ينبرى للرد على مطاعن الشعوبية والتصدى لها والدفاع عن العرب بحمية وثورية وإقناع وإخلاص فيقول :

" واعلم أنك لم تر قوما أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه ولا أشد استهلاكاً لعرضه ولا أطول نصبا ولا أقل غنما من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم وتوقد نار الشنآن في قلوبهم وغليان تلك المراجل الفائرة وتسعر تلك النيران المضطرمة ، ولو عرفوا أخلاق كلّ ملة وزيّ كل لغة وعللهم في اختلاف إشاراتهم وشمائلهم وهيئاتهم وما علة شيء من ذلك ولم اختلقوه ولم تكلفوه لأراحوا أنفسهم ولخففت مؤونتهم على من خالطهم ... " [2] .

ولقد كانت نكبة البرامكة في عهد الرشيد من كبريات الحوادث في العصر العباسي الأول بلا جدال فمن بعدها عظم النفوذ العباسي ولولا سوء التصرف في ولاية العهد وأطماع الحكم لما تفتتت الدولة العباسية ولما تعاظم نفوذ الأتراك وغير الأتراك حتى صار العنصر التركي آفة على الحكم العباسي .[3] وذلك حين تدخلوا في شئون الدولة وفرضوا أنفسهم على الحكم وأقدموا على قتل الخلفاء وتولية من شاءوا وأصبحت الدولة ميدانا للفوضى والاضطراب وصار أمر الخلافة والعزل والحبس والقتل لعبة هؤلاء الأتراك .

إن المراجع التاريخية التي بين أيدينا تحدثنا أنه في عام ٢٢٠هـ استقدم المعتصم عددا كبيرا من الأتراك عدتهم ثمانية عشر ألفا .[4] وحين تزايدت أعدادهم

---

(١) ضحى الإسلام جـ١ ص٧٤ .
(٢) البيان والتبيين جـ٣ ص١٦ .
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص٣٤٩ .
(٤) النجوم الزاهرة جـ٢ ص٢٣٣ .

وضاقت بهم بغداد اتخذ من " سامرا " على شاطىء دجلة معسكرا لجيشه وحاضرة لملكه منذ عام ٢٢١هـ[١] وأصبحت من أعظم الحواضر الإسلامية ولا عجب فأم المعتصم تركية وهو يميل إلى الأتراك لأنهم أخواله وهو يمقت الفرس ويخشى بأسهم فقد شاهد جرأتهم وتطاولهم بعد قتل الأمين بل إنهم حاولوا أن يمنعوه حقه فى الخلافة بتولية العباس بن المأمون الأمر من دونه لكن العباس بايع لعمه المعتصم فكان ذلك مما زاد تقريبه للأتراك .

وانتقلت سياسة الدولة من أيدى الفرس إلى أيدى الأتراك الذين استبدوا وطغوا وبغوا وأكثروا فى الأرض الفساد وصبوا على الفرس وعلى العرب جميعا سياط العذاب ... حدث ذلك فى عهد المعتصم وابنه الواثق بالله وجعفر المتوكل على الله بن المعتصم ، وحين أراد المتوكل أن يحد من نفوذهم كان مصيره القتل غيلة بأيديهم .[٢] وتزايد نفوذ الأتراك وبطشهم فى عهد المنتصر بن المتوكل الذى تآمر معهم على قتل أبيه .[٣] وفى عهد المستعين الذى خلعوه ثم قتلوه وجاءوا بالمعتز بالله ابن المتوكل عام ٢٥٢هـ وكان يكرههم ويرغب فى الثأر منهم انتقاما لأبيه المتوكل وقتل بعض زعمائهم لكن الأتراك لم يتركوه فأخذوه وعذبوه وضربوه بالدبابيس وجروه إلى باب الحجرة وأقاموه فى الشمس حافيا وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده وخلع المعتز نفسه عام ٢٥٥هـ لكنهم حبسوه بعد ذلك وقتلوه .[٤] وولوا مكانه المهتدى بالله بن الواثق لكنهم خلعوه عام ٢٥٦هـ لعدله وزهده وورعه . وفى عهد المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩هـ) تمكن أخوه الموفق الذى تولى أمر الجيش من كبح جماح الأتراك وصارت السلطة الفعلية له لا للمعتمد وقد سار من بعده ابنه المعتضد على

---

(١) مروج الذهب جـ٤ ص٩ .

(٢) زهر الآداب جـ١ ص٢٦٠ وما بعدها - العقد الفريد جـ٢ ص١٨٦ .

(٣) نفسه .

(٤) الطبرى جـ١١ ص١٦٢ شذرات الذهب جـ٢ ص١٣٠ مروج الذهب جـ٤ ص١٢٠ .

نهج أبيه الموفق وكذلك سار المكتفى بن المعتضد على سياسة الحزم والأخذ على أيدى الأتراك وبعد وفاة المكتفى تولى أخوه المقتدر الأمر من بعده بنفوذ الأتراك وتأييدهم له وظل خليفة إلى عام ٣٢٠هـ . وكان من نتيجة هذه الأوضاع أن ازداد نفوذ الغلمان من الخدم الذين تمكن بعضهم من تولى قيادة الجيوش وأهم أعمال الدولة كبدر غلام المعتضد الذى تولى قيادة الجيوش ونقش اسمه على الأعلام وقد قتل فى سبيل مولاه المعتضد عام ٢٨٩هـ[١] كما تزايد نفوذ النساء وعظم تدخلهن فى شئون الدولة وكان ذلك على أشده فى أيام المقتدر لتسلط الخدم والحجاب فقد كان لأم المقتدر وهى تركية سطوة غريبة على رجال الدولة فى خلافة ابنها .[٢] وقد أطلق المستعين بالله من قبل يد أمه الصقلية الأصل فى أمور الدولة ومعها اثنان من قواد الأتراك هما أتامش وشاهك الخادم .[٣] وقد كان للخيزران أم الهادى والرشيد قبل ذلك نفوذ عظيم وسلطة واسعة .[٤]

ولم يكن الأدب بعيدا عن هذه الأحداث بل كانت له جولات فى تصوير مظاهر الضعف والتنديد باستبداد العناصر الدخيلة والتعبير عن الأسى والألم الذى انتاب الجماهير المخلصة الغيورة على مصالح الدولة ومكانة العرب والتنبيه على الأخطار المحدقة بالحكم والخلافة ووحدة الدولة نتيجة لهذه السياسة المتدهورة التى انتهجها بعض الخلفاء ... يروى أن أبا نخيلة الشاعر وفد على أبى جعفر المنصور ووقف ببابه واستأذن فلم يؤذن له وهو يرى الخراسانية تدخل وتهزأ به فسأله صديق له رآه فى تلك الحال : كيف ترى ما أنت فيه من هذه الدولة ؟ فقال :

أكثر خلق الله بى لا يدرى من أى خلق الله حين يلقى

---

(١) ابن الأثير جـ٧ ص٢٠٥ .
(٢) تاريخ الوزراء ص٦٧ .
(٣) ابن الأثير جـ٧ ص٤٧ .
(٤) ابن الأثير جـ٦ ص٤١ .

وحلة تنشر ثم تطوى وطيلسان يشترى ويشقى
بعبد عبد أو بمولى مولى يا ويح بيت المال ماذا يلقى[1]

وها هو ذا يزيد المهلبى يرثى المتوكل الذى تناوشته سيوف الأتراك خيانة وغدرا ويبكت بنى العباس فى نبذهم العرب واستغنائهم بمماليك الترك فيقول :

لما اعتقدتم أناسا لا حلوم لهم ضعتم وضيعتم من كان يعتقد
ولو جعلتم على الأحرار نعمتكم حمتكم السادة المذكورة الحشد
قوم هم الجذم والأنساب تجمعهم والمجد والدين والأرحام والبلد
إن العبيد إذا أذللتهم صلحوا على الهوان وإن أكرمتهم فسدوا
إذا قريش أرادوا شدّ ملكهم بغير قحطان لم يبرح به أود[2]

والبحترى يصور هذه المأساة معبرا عن خسة الأتراك وغدرهم ودناءة ولى العهد الذى اشترك فى المؤامرة فيقول : [3]

تخفى له مغتاله تحت غرة وأولى لمن يغتاله لو يجاهره
فما قاتلت عنه المنايا جنوده ولا دافعت أملاكه وذخائره
حلوم أقلتها الأمانى ومدة تناهت وحتف أوشكته مقادره
ومغتصب للقتل لم يخش رهطه ولم تحتشم أسبابه وأواصره
صريع تقاضاه السيوف حشاشة يجود بها والموت حمرٌ أظافره

ثم يقول : [4]

لنعم الدم المسفوح ليلة " جعفر " هرقتم وجنح الليل سود دياجره

(١) الأغانى جـ١٨ ص١٤٨ .
(٢) الكامل للمبرد جـ٢ ص٣١١ .
(٣) ديوان البحترى جـ١ ص٢٨ ط : الجوائب .
(٤) ديوان البحترى جـ٢ ص٢٣٤ - ٢٣٦ .

كـــأنكم لم تعلمـــوا من وَليُّه ويا غـيـــة تحت المرهفـــات وثائره
وإنـى لأرجـــو أن تُرَدَّ أمـــوركم إلى خلف من شـخـصـه لا يغـادره
مـــقلب أراء تـخـــاف أناته إذا الأخرق العجلان خيفت بوادره

وحين أقدم المعتز بن المتوكل على قتل " وصيف " و" بغا " بن قادة الأتراك انتقاماً لأبيه مدحه " البحترى " بقصيدة يصور فيها مصرع " بغا " . فيقول :

أضـحى بغـاء وأقـربوه وحـزبه وكـــأنهم حلم من الأحـــلام
طاحـوا فـمـا بكت العـيـون عليـهم بدمـوعـهـا ومـضـوا بغـيـر سـلام

وكان المعتضد بن الموفق يعمل جاهدا على الحد من نفوذ الأتراك وكبح جماحهم وفيه يقول ابن المعتز من أرجوزة فى تاريخه :[1]

قـام بأمـر الملك لما ضـاعـا وكـان نهـبـا فى الورى مـشـاعـا
وكل يوم ملك مـقـتـول وخـائـف مـــروّع ذليل
وكل يوم شـغب وغـصـب وأنفس مـقـتـولة وحـرب
وكم فـتـاة خـرجت من منزل فـغـصـبـوها نفسـهـا فى المحفل
ويطلبـون كل يوم رزقـا يرونه دينـا لـهـم وحـقـا
كـذاك حـتى أفـقـروا الخـلافـة وعـودوها الرعب والمخـافـة

على أن السياسة كثيرا ما تسخر الأدباء والشعراء لصالحها وخاصة فى مجالات المدح وذكر المناقب فقد رأينا الجاحظ يؤلف رسالة بارعة بإيحاء الفتح بن خاقان يدعو فيها إلى وحدة الأجناس والعناصر ويشيد فيها بالأتراك وبطولتهم إلى حد بعيد .[2] والجاحظ يعلل ذلك بأنه إنما ألفها ليؤلف بين قلوب الجند إن كانت مختلفة وليزيد فى الألفة إن كانت مؤتلفة وليحذر من المنافقين .[3] وقد رأينا البحترى يختص الأعاجم بأكثر مدائحه من الوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة من

(١) ابن المعتز لخفاجى ص١٣ .
(٢) رسائل الجاحظ (أول المجموعة) .
(٣) رسائل الجاحظ ص١٧ .

الأتراك والفرس وقد أشار البحترى إلى ذلك مدافعا عن نفسه فى قوله من قصيدة له يمدح " اذكو تكين " وقومه بنى ساسان :

متى لم يزك فى العرب ارتيادى ... حططت إلى رباع الأعجمينا
نوالى مغشرا قربوا إلينا ... ونثرى من تطول آخرينا
بنو أعمامنا الدانون منا ... وواهبة النوال بنو أبينا[1]

والرأى العام فى الدولة كثيرا ما يتغلب ويجد فى الشعر منفذا له ومعبرا عنه : فالخليفة المهدى العباسى اشتغل باللهو واللعب وسماع الأغانى وفوض الأمور إلى وزيره يعقوب بن داود وفى ذلك يقول بشار :

بنى أمية هبوا طال نومكم ... إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خلافة الله بين الناى والعود[2]

والفضل بن مروان وزير المعتصم كان عاميا لا علم عنده ولا معرفة وكان ردىء السيرة جهولا بالأمور قال فيه بعض شعراء عصره :

تفرعنت يا فضل بن مروان فاعتبر ... فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم ... أبادهم التقييد والأسر والقتل[3]

" يقصد بالثلاثة : الفضل بن يحيى ، والفضل بن سهل ، والفضل بن الربيع"

وفى وزير المعتصم أحمد بن عمار بن شاذى يقول بعض الشعراء :

سبحان ربى الخالق البارى ... صرت وزيرا يا ابن عمار
وكنت طحانا على بغلة ... بغير دكان ولا دار
كفرت بالمقدار إن لم تكن ... قد جزت فى ذا كل مقدار[4]

(١) أبو عبادة البحترى د. محمد صبرى ص٦٦ .
(٢) الفخرى ص١٨٤ ص١٨٥
(٣) الفخرى ص٢٣٢
(٤) الفخرى ص٢٣٣ .

ثالثا : صراع الأحزاب فإنه لم تكن هناك العلوية وحدها بل كان هناك الشيعة العلوية والخوارج والمرجئة والمعتزلة وتلك أحزاب سياسية اتخذت طابعا دينيا وأدى بها الخلاف حول الإمامة والخلافة إلى بحوث دينية قد تبدو دينية محضة لكنها فى الحقيقة تنبع من وجهة نظر سياسية . وقد خاضت الدولة العباسية صراعا طويلا مريرا مع الشيعة العلوية كما قامت الخوارج ووقفت من المرجئة والمعتزلة حسب مصالحها وأهوائها ووجهة نظر أولى الشأن فيها . وكان لكل حزب من هذه الأحزاب دعاته وأنصاره المؤيدون له المتمسكون بمبادئه والمعبرون عن آرائه ، وكان الأدباء والشعراء على رأس هؤلاء الدعاة والأنصار فقد حملوا عبء الدعوة والإشادة بالأحزاب التى ينتمون إليها والدفاع عنها والرد على خصومها ، وقد كان لأشعارهم هذا الطابع الجدلى المميز بما تحتويه من حجة وإقناع ودليل وبرهان وفكر ومنطق وأساليب محاورة وحجاج . فقد كان الصراع قويا عنيفا لا تغنى فيه العواطف المطلقة عن اقتناع العقل وقوة الحجة وصحة الدليل ونصاعة البيان . وتلك سمة من سمات الشعر الحزبى فى هذه المرحلة التى اشتدت فيها وطأة بنى العباس على الشيعة العلوية وناصبتها العداء وتفرغت لها بعد أن أجهزت على الأموية فى المشرق العربى .

وكان لبنى العباس شعراؤهم الذين يسبغون عليهم صفة القدسية والجلال فهم الأئمة الهداة المهديون طاعتهم فريضة وإيمان والخروج عليهم كفر وعصيان وهم أصحاب الحق والأمر ولا ينبغى لأحد أن ينازعهم فى ذلك وإلا حقت عليه لعنة الله وسخطه واستحق الخروج من ظل الأمن وطمأنينة الطاعة إلى ذل الخوف وبأس العقوبة . وكان من الطبيعى أن يلتف كثير من الشعراء حول الحزب الحاكم وخلفاء بنى العباس الذين يهتزون للمديح والإطراء وتفيض أيديهم بالعطاء حين يطربون لروعة المعانى وسحر الأساليب وحسن البديع . ومن بين هؤلاء الشعراء المداحين

للخلفاء سديف بن ميمون ومروان بن أبى حفصة وأبو دلامة ومنصور النمرى وبشار ابن برد وأبان اللاحقى وأبو نواس وأبو العتاهية وأبو الشيص وسلم الخاسر والعمانى وإبراهيم بن المهاجر وأبو تمام والبحترى . وقد كانت مدائحهم للعباسيين تخدم أهدافا سياسية بعيدة المدى وترتكز على محاور رئيسية من إسباغ القدسية والجلال على الخلفاء ودعم فكرة الحق الموروث فى الخلافة ووصفهم بالتقوى والورع وأنهم خلفاء الله فى أرضه لا يشاركهم فى هذا الحق سواهم ومن هنا كانت أساليب الحجاج والمقارعة بالأدلة والبراهين والأسانيد ومأثور الأقوال ، كما اتسمت هذه المدائح بما يشيع فيها من مبالغات تفوق كل وصف وتتعدى كل حد ، ويبدو أن الخلفاء كانوا يشجعون هذا الاتجاه ويدفعون الشعراء دفعا إليه بما كانوا يظهرونه من الرضا والاستحسان وبما كانوا يرصدونه من الجوائز والأموال ولذلك أقبل الشعراء على هذا الغرض وساروا فى هذا الاتجاه فأبدعوا وجددوا وابتكروا واستعانوا بكل ما لديهم من علم وفكر وثقافة وفن للوصول إلى الغايات والمآرب ونوعوا المطالع ولم يلتزموا بالنسيب فبدأوا بوصف الطبيعة والرياض والقصور كما بدأوا بالحكمة وعبروا من خلال مدائحهم عن الخواطر والمشاعر الذاتية باستفاضة وانطلاق وأحسنوا الانتقال وأجادوا فى الوصف والتصوير وبعض هؤلاء الشعراء كان يلتزم بجانب الفحولة والجزالة فى مدائحه والبعض الآخر صاغ مدائحه فى أوزان سهلة طيعة وأساليب مرنة ميسورة وأخرجها فى إطار شعبى تتقبله الجماهير وتتفتح له القلوب وتتعشقه النفوس ... يقول بشار فى مدح الخليفة المهدى :

ورثتم رسول الله بيت خلافة ... وعزا على رغم العدو وسؤددا

وأنتم حماة الدين لولا دفاعكم ... لقد قذيت عيناه أو كان أرمدا[1]

---

(١) ديوان بشار جـ٣ ص٣٩ .

ويقول العمانى فيه :

الحمد لله الذى بحمده ... منّ على عباده بعبده

مهدينا الهادى الذى برشده ... أصبح بين غوره ونجده

وكل حر يرتجى من رفده ... فضل الذى فضله بمجده

يا ابن الذى كان نسيج وحده ... أثبت لها رون مكان ورده[1]

ويقول منصور النمرى فى مدح الرشيد :

يا ابن الأئمة من بعد النبى ويا ابن الأوصياء أقر الناس أم دفعوا

لولا عدى وتيم لم تكن وصلت ... إلى أمية تمريها وترتضع

إن الخلافة كانت إرث والدكم ... من دون تيم وعفو الله متسع

وما لآل على فى إمارتكم ... حق وما لهم فى إرثكم طمع

يا أيها الناس لا تغرب عقولكم ... ولا تضفكم إلى أكنافها البدع

العم أولى من ابن العم فاستمعوا ... قول النصيح فإن الحق يستمع[2]

ويقول النمرى ويسرف :

أى امرىء بات من هارون فى سخط ... فليس بالصلوات الخمس ينتفع

إن المكارم والمعروف أودية ... أحلك الله منها حيث تتسع

إذا رفعت امرءا فالله يرفعه ... ومن وضعت من الأقوام متضع[3]

أما أبان اللاحقى فهو ينشد :

نشدت بحق الله من كان مسلما ... أعم بما قد قلته العجم والعرب

---

(١) طبقات ابن المعتز ص١١١ .

(٢) نفسه ص٢٤٤ و٢٤٥ .

(٣) نفسه .

أعم رسـول الله أقـرب زلفـة لديه أم ابن العم فى رتبـة النسب

وأيهـمـا أولى به وبعـهـده ومن ذا له حق التـراث بما وجب

فـإن كـان عـبـاس أحق بنسلكم وكـان على بعـد ذاك على سـبب

فـأبناء عـبـاس هم يرثونه كما العم لابن العم فى الإرث قد حجب[1]

ومروان بن أبى حفصة كان ناصبيا يعرض فى شعره بآل الرسول[2] ومن قوله فى مدح الخليفة المهدى :

يا ابن الذى ورث النبىَ مـحـمـدا دون الأقـارب من ذوى الأرحـام

الوحى بين بنى البنات وبينكم قطع الخصام فلات حين خصام

مـا للنسـاء مع الرجـال فـريضـة نزلت بذلك سورة الأنعام

أنـى يـكـون وليـس ذاك بـكـائـن لبنى البنات وراثة الأعـمـام[3]

ولمروان قصيدة مشهورة أنشدها بين يدى المهدى يقول فى مطلعها :

طرقـتك زائرة فـحى خـيـالهـا بيـضـاء تخلط بالجـمـال دلالهـا

قـادت فـؤادك فـاسـتـقـاد ومـثلهـا قـاد القلوب إلى الصبـا فـأمـالهـا

إلى أن قال :

هل تطمسون من السماء نجومها بأكـفكم أو تسـتـرون هلالهـا

أو تجـحـدون مـقـالة من ربكم جـبـريل بلغـهـا النبى فـقـالهـا

شـهـدت من الأنفـال آخـر آية بتـراثهم فـأردتم إبطالهـا[4]

---

(١) الأوراق قسم أخبار الشعراء ص١٤ .
(٢) طبقات ابن المعتز ص٤٦ .
(٣) الأغانى جـ٢٠ ص٧٥ .
(٤) تاريخ بغداد جـ١٣ ص١٤٢ .

ومن المبالغة قول أبى نواس فى الرشيد :

وأخـفت أهل الشـرك حـتى أنه لتـخـافك النطف التى لم تخلق[1]

وقول أبى العتاهية فى المهدى :

ولو لم تطعـه بنات القلوب لما قـبل الله أعـمـالهـا[2]

وقول البحترى فى المتوكل :

يجـدون رؤيتك التى فـازوا بهـا مـن أنعم الله الـتى لا تكفـر

ذكـروا بطلعـتك النبى فـهللوا لما طلعت من الصـفـوف وكـبـروا

إلى أن قال :

فلو أن مـشـتـاقـا تكلف فـوق مـا فى وسـعـه لمشى إليك المنبـر[3]

أما أبو تمام فقد كانت له فى المدائح قدم راسخة فى إبداعه وتجديده فى المطالع وجودة معانيه وعمق أفكاره وحسن انتقاله ... يقول فى مطلع قصيدة يمدح بها المعتصم :

رقت حـواشى الدهر فـهى تمرمـر وغـدا الثـرى فى حليـه يتكسـر

نزلت مـقـدمـة المصـيف حـمـيـدة ويد الشـتـاء جـديدة لا تكفـر

إلى أن قال بعد واحد وعشرين بيتا فى وصف الربيع وجمال الطبيعة :

خلق أطلّ من الربيـع كـأنه خلق الإمـام وهديه المتـيـسـر

فى الأرض من عدل الإمـام وجـوده ومن النبـات الغض سـرج تزهر

---

(١) الموشح ص٢٦٩ .

(٢) ديوان أبى العتاهية ص٣١١ .

(٣) وفيات الأعيان جـ٥ ص٧٨ .

تنسى الرياض ومـا يروض فـعله أبدا على مـر الليـالى يذكـر
إن الخليـفـة حين يُظلم حـادث عين الهـدى وله الخـلافـة مَحْجِر
كـثـرت به حـركـاتهـا ولقـد ترى من فـتـرة وكـأنهـا تتـفكر
مـازلت أعلم أن عـقـدة أمـرها فى كـفِّه مـذ خُلِّيت تتـحـيـر[1]

وأبو العتاهية يمثل بساطة التعبير وشعبيته فى هذه المدائح السياسية تأمل قوله فى مدح المهدى :

أتتـه الخـلافـة منقـادة إليـه تجـرر أذيالـهـا
ولـم تـك تـصـلـح إلا لـه ولـم يـك يـصـلـح إلا لـهـا
ولو راغـهـا أحـد غـيـره لـزلـزلـت الأرض زلـزالـهـا[2]

وأقوى حزب كان يناوىء العباسيين هو الحزب العلوى بكل ما يمثله العلويون من رمز النبوة وذكريات البطولة والاستشهاد ، ولقد كان للعلويين شعراؤهم وأنصارهم ومن يحملون ويتحملون عبء الدفاع عن الدعوة العلوية ومعتقدات الشيعة على اختلاف طوائفها ومذاهبها واتجاهاتها .

ولقد كان هؤلاء الشعراء يصدرون عن عاطفة صادقة ومشاعر فياضة وقلوب متدفقة بالتشيع نابضة بحب آل البيت ، ولذلك كان للشعر الشيعى العلوى إثارته القوية للعواطف وإلهابه للأحاسيس بما فيه من لوعة الأسى وعمق الانفعال وأصالة العاطفة وصفاء النفس والتهويم فى آفاق الخيال وبراعة التصوير . وكانت الدعوة العلوية ترتكز على أساس أحقيتهم فى الخلافة لأنهم من نسل رسول الله وأن الخلافة انحرفت عنهم ظلما وعدوانا وأنهم هم الذين تحملوا عنت الأمويين وظلمهم

(١) ديوان أبى تمام المجلد الثانى ص١٩١ وما بعدها تحقيق محمد عبده عزام .
(٢) الديوان ص٣١١ .

وكان منهم الضحايا والشهداء وأنهم يترقبون يوما يعود فيه الحق إليهم ويكون الخلاص من الظلم على يد المهدى المنتظر . ومن بين الشعراء العلويين جعفر بن عفان الطائى والسيد الحميرى ودعبل ومن بين الشواعر العلويات عائشة العثمانية التى يقول عنها ابن المعتز : " كانت تفرق مالها فى الطالبيين وتجهز جيوشهم وتقوى أمورهم ... وحاربت فى مواطن كثيرة وقتلت بشرا كثيرا ولها فى كل وقعة شعر "[1] وفضل الشاعرة التى كانت تتشيع وتتعصب لهذه العصابة وتقضى حوائجها بجاهها ومالها .[2] ومن نماذج الشعر العلوى رد جعفر بن عفان الطائى على مروان بن أبى حفصة :

لم لا يكون وإن ذاك لكائن ... لبنى البنات وراثة الأعمام

للبنت نصف كامل من ماله ... والعم متروك بغير سهام

وما للطليق وللتراث وإنما ... صلى الطليق مخافة الصمصام[3]

وقول دعبل :

طرقتك طارقة المنى ببيات ... لا تظهرى جزعا فأنت بدات

فى حب آل المصطفى ووصيه ... شغل عن اللذات والقُنْيات

إن النشيد بحب آل محمد ... أزكى وأنفع لى من القُنْيات

فاحش القصيد بهم وفرِّغ فيهمُ ... قلبا حشوت هواه باللذات

واقطع حِبالة من يريد سواهمُ ... فى حبه تحلل بدار نجاة[4]

رابعاً : العصبية العربية التى ساعها أن تجد النفوذ الأجنبى يطغى ويستبد

---

(١) طبقات ابن المعتز ص٤٢٤ .
(٢) نفسه ص٤٢٦ .
(٣) الأغانى جـ١٠ ص٩٥ .
(٤) طبقات ابن المعتز ص٢٦٨ .

ويهيمن على مقدرات الدولة فاستعانت بالعناصر الأجنبية ثم عملت بكل الطرق على تفريق الإخاء والوحدة بإثارة العصبية بين اليمنية والمضرية .[1]

وقد بلغ الصراع ذروته بين العنصر العربى والأجنبى الفارسى فى الفتنة التى كانت قائمة بين الأخوين الأمين والمأمون ابنى هارون الرشيد بسبب ولاية العهد والتى انتهت بقتل الأمين الذى كانت تناصره العصبية العربية وفوز المأمون المؤيد بالنفوذ الفارسى وكان للشعر صوته ونغمته العالية فى هذا الصراع وقد رأينا شاعرا كأبى نواس ينتمى إلى أصول فارسية يشيد بالخليفة محمد الأمين ويبالغ فى تمجيده وكان أبو نواس ممن يؤيدون الخليفة الأمين ويناصرونه على من يناوئون سياسته :

وإذا المطى بنا بلغن محمدا ... فظهورهن على الرجال حرام

قربننا من خير من وطىء الحصى ... فلها علينا حرمة وذمام

ملك إذا علقت يداك بحبله ... لا يعتريك البؤس والإعدام

فالبهو مشتمل ببدر خلافة ... لبس الشباب بنوره الإسلام

✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪

ملك اذا اعتسر الأمور مضى به ... رأى يفلّ السيف وهو حسام

فسلمت للأمر الذى ترجى له ... وتقاعست عن يومك الأيام[2]

وكان بنو العباس يخشون الصراحة العربية التى لا تعرف مواربة ولا مداهنة وقد ازدادوا حذرا من العرب بسبب ما رددوه من نقد ضد الحكم العباسى ، روى أن المنصور كان يطوف بالكعبة ليلا إذ سمع داعيا يبتهل " اللهم أشكو إليك ظهور

(١) تاريخ التمدن الإسلامى جـ٤ ص١٤١ .
(٢) ديوان أبى نواس ص٤٠٨ وما بعدها ط : مصر ١٩٥٣ .

البغى والفساد فى الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع " وقد فزع المنصور لذلك وانتحى ناحية ودعا بالقائل وطلب إليه أن يفصح عن مقصده فكان جواب الرجل " إن الذى حال بين الحق وأهله هو أنت يا أمير المؤمنين لأن الله تعالى استرعاك المسلمين وأموالهم فجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر وأبوابا من الحديد وحجابا معهم الأسلحة وأمرتهم ألا يدخل عليك إلا فلان وفلان .. لم تأمر بإيصال المظلوم والملهوف ولا الجائع والعارى ولا الضعيف والفقير وما أحد إلا وله من هذا المال حق "[1] وكان نتيجة ذلك أن ارتفع شعار القتل بالتهمة وتمكن العباسيون بهذه السياسة من التمكين لسلطانهم بالسطوة والبأس ، وقد تطور نظام الخلافة فعلا بقيام الدولة العباسية إذ أقام العباسيون حقهم فى الحكم والملك على أساس أنهم وارثو بيت الرسول وفى إطار الزعامة الدينية كان خلفاء بنى العباس هم الأئمة المهديين الراشدين وليسوا كغيرهم من ملوك الدنيا وطلاب الحياة . لكن الواقع كان شيئا آخر فقد أصبح نظام الحكم فى عهد بنى العباس مماثلا لما كان عليه فى بلاد الفرس أيام آل ساسان وغلبت عادات الفرس وتقاليدهم فى البلاط العباسى وسادت مظاهر الأبهة والنعيم واتخذوا الوزراء والحجاب وأقاموا الدواوين المختلفة التى تشبه الوزارات فى العهد الحاضر .[2] ومن بين هذه الدواوين :

ديوان الزنادقة الذى أنشأه المهدى حين فشت الزندقة وعم الإلحاد ، وديوان الأزمة وديوان المظالم وديوان الإنشاء وقد نظموا البريد وأعمال الشرطة والحسبة وموارد الدولة ونظام الضرائب وزادت أهمية القضاء واتسعت مهمة القاضى وأنشأوا وظيفة السياف والمنجم . وسار الخلفاء العباسيون على نظام تولية العهد

(١) ديوان أبى نواس ص٤٠٨ وما بعدها ط : مصر ١٩٥٣ .
(٢) تاريخ التمدن الإسلامى جـ٤ ص١٤١ .
(٣) تاريخ الإسلام السياسى جـ٢ ص٢٠٦ ص٢١٦ .

لأكثر من واحد وقد جرت هذه السياسة على الدولة مصائب وأهوالا جساما نتيجة الأحقاد والأضغان بين أفراد البيت الحاكم .

وكان النظام الإدارى فى العصر العباسى الأول يعادل خير النظم الحديثة من حيث توزيع العمل وإدارة الدواوين فكان النظام الإدارى نظاما مركزيا يقوم فيه الخليفة باختيار عمال الأقاليم بنفسه ولم تكن هناك سلطة مطلقة لهؤلاء العمال بل كانت هناك قيود على هذه السلطة تحد من حركات العمال وتصرفاتهم .[1] وهذا بغير شك تدبير سياسى يحفظ للخلفاء نفوذهم ويحميهم من مراكز القوى ولذا فإنه حين ضعفت هذه السلطة المركزية ساءت الأحوال وانفصلت بعض الولايات وخاصة حين لجأ الولاة والقادة من أفراد البيت العباسى إلى الإقامة فى كبريات المدن وإنابة أناس يتولون الحكم باسمهم فى الولايات المختلفة . ومن بين الدويلات العديدة التى ظهرت فى فترة القرنين الثانى والثالث الهجريين :

الدولة الحمدانية بحلب والموصل " عربية ١٣٧ - ٣٩٤هـ " .

الدولة الطاهرية بخراسان " فارسية ٢٠٥ - ٢٥٩هـ " .

الدولة الدلفية بكردستان " عربية ٢١٠ - ٢٨٥هـ " .

الدولة البويهية بفارس ثم العراق " فارسية ٢٢٠ - ٣٢٠هـ " .

الدولة الطولونية فى مصر والشام " دولة تركية ٢٤٥ - ٢٩٢هـ " .

الدولة الصفارية بفارس " فارسية ٢٥٤ - ٢٩٠هـ " .

الدولة السمانية بفارس وماوراء النهر " فارسية ٢٦١ - ٣٨٩هـ " .

الدولة الفاطمية بمصر والشام " عربية ٢٦٢ - ٥٦٧هـ " .

الدولة الساجية فى أذربيجان " فارسية ٢٦٦ - ٣١٨هـ " .

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردى ٢٨ - ٣٤ .

وإذا كان لهذا التصدع آثار سيئة من وجهة النظر السياسية إلا أنه أتاح للأدب مزيدا من الرواج والازدهار ... لقد كانت بغداد هى مقر الخلافة وقبلة الأنظار إليها تهفو القلوب وبها تتعلق النفوس فلا عجب أن أصبحت مركزا أدبيا عظيما يحتضن الأدباء ويفيض عليهم بالكثير الغزير كما أصبح الذوق البغدادى هو الذوق السائد وهو المقياس للأعمال الأدبية الجيدة واختفت إلى حدٍّ ما النزعات الإقليمية لفترة امتدت طوال عهد الدولة الواحدة وعصر نفوذ الخلفاء ولعل ذلك ما تشير إليه عبارة الباحث فى قصة الأدب فى العالم حيث يقرر أن المرء لا يشعر شعورا قويا بطابع إقليمى ولا بفنون مخترعه تقتضيها بيئة الإقليم ولا بأوزان مبتكرة تنتج من رنات موسيقية يوحى بها الإقليم ، بل كلهم يقلد العراقيين فى مذهبهم ومنحاهم وموضوعاتهم وأساليبهم ...[1]

ولم تظهر آثار هذه الإقليمية بجلاء ووضوح إلا فى عصر الدويلات وتعدد المراكز الأدبية . فقد أفاد الأدباء حيث تعددت معارض الأدب وأسواقه وتسابقت المراكز الأدبية فى اجتذابهم والاحتفال بهم وإجزال العطاء لهم كما أفادت الأقاليم لأن تاريخ الأدب أدخلها فى حسابه وحفظ لها مكانتها ومنزلتها وما كان ليتحقق لها ذلك وهى تدور فى فلك العراق فازدهر الشعر وراجت بضاعته وتفنن الشعراء وأبدعوا وكان لأدب كل إقليم طابعه الخاص المتميز واشتدت المنافسة بينهم وكان من ذلك خير كثير وأدب غزير .

لقد أثار تعدد الدويلات حركة قوية ورواجا فى سوق الشعر وقد بلغت هذه الحركة مداها وغايتها فى أكناف دول عربية المحتد والثقافة كدولة الحمدانيين والفاطميين وأخرى أعجمية الأصل لكنها عربية الثقافة والنشأة كدولة البويهيين والسامانين والأيوبيين وبذلك انتعشت الآداب الإقليمة وأخصبت منابت الشعر بعد

(١) قصة الأدب فى العالم لأحمد أمين وزكى نجيب محمود جـ١ ص٤٠١ .

جدب وأصبحت حركة الشعر العربى ترتبط بعديد من البلدان غير بغداد كالقاهرة وحلب والرى وأصبهان وجرجان وطبرستان وبخارى ونيسابور ... وغيرها وتأثر الشعر بهذه العناية البالغة فى أكناف الدول الناشئة فأبدع الشعراء وأجادوا وتزودوا من كل علم بطرف وتعلقت أنظارهم بالتراث الموروث والجديد المكتسب طمعا فى الوصول إلى أعلى منزلة وأسمى مكانة كما تأثر بالنهضة العلمية المتطورة وبالمعارف المنقولة من الأمم الأخرى كما تأثر بخصائص الأجناس المختلفة وطبيعة البيئات المتفاوتة وحظها من الحضارة والمدنية والازدهار . وظهرت آثار ذلك كله بوضوح فى معانى الشعر وأخيلته وألفاظه وأساليبه وأغراضه وموضوعاته وصوره وموسيقاه ... .

وفى مجال السياسة الداخلية نرى أن الدولة العباسية كانت تعتمد فى معاملة الرعايا من أهل الذمة على المحاسنة والعدل والرفق واصطناعهم للانتفاع بهم فى شئون الدولة وما يتقنونه من ضروب المهارة والازدهار[1] ولكن هذا لا يمنع أن تختلف سياسة بعض الخلفاء عن هذا النهج لسبب أو لآخر فنراهم يضيقون على أهل الذمة ولا يأمنون جانبهم ويشددون عليهم فى المعاملة .[2]

وقد أورد صاحب ضحى الإسلام قول الأستاذ " متز " : إن مما يميز المملكة الإسلامية عن أوروبا النصرانية فى القرون الوسطى أن الأولى يسكنها عدد كبير من معتنقى الأديان الأخرى غير الإسلام وليست كذلك الثانية ، وأن الكنائس والبيع ظلت فى المملكة الإسلامية كأنها خارجة عن سلطان الحكومة وكأنها لا تكون جزءاً من المملكة معتمدة فى ذلك على العهود وما أكسبتهم من حقوق وقضت الضرورة أن

(١) تاريخ التمدن الإسلامى جـ٤ ص١٣٠ .
(٢) ابن خلدون جـ٣ ص٢٧٥ ، ابن الاثير جـ٧ ص٢٠ المقريزى جـ٢ ص٤٩٤ .

يعيش اليهود والنصارى بجانب المسلمين فأعان ذلك على خلق جو من التسامح لا تعرفه أوروبا فى القرون الوسطى .[1]

والأمر فى نظرى ليس خروجا على سلطان الحكومة أو انفصالا عن المملكة إنما هو التسامح الإسلامى الرشيد الذى لا يعرف له نظير على امتداد الأجيال والعهود . ولقد تسرب كثير من الآراء والعقائد واليهود والنصرانية إلى الأدب العربى شعرا ونثرا ، ودخلت كتب الأدب نصائح يهودية تروى عن أنبيائهم وصلحائهم ، وعرف بعض الشعراء من النصارى وتردد فى الأدب العربى كثير مما يصور عاداتهم وتقاليدهم وأعيادهم وشعائرهم وملابسهم وأزيائهم والصحبة معهم والإشادة بهم أو الاستهانة بهم والحط من شأنهم ... يقول أبو نواس :

سألت أخى أبا عيسى ... وجبريل له عقل
فقلت : الراح تعجبنى ... فقال كثيرها قتل
رأيت طبائع الانسا ... ن أربعة هى الأصل
فأربعة لأربعة ... لكل طبيعة رطل[2]

ويقول عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع :[3]

ياليلة ليس لها صبح ... وموعدا ليس له نجح
من شادن مرّ على وعده الـ ... ميلاد والسُّلاق والذبح
وفى السعانين لو انى به ... وكان أقصى الموعد الفصح
فالله أستعدى على ظالم ... لم يغن عنه الجود والشح[4]

(١) ضحى الإسلام جـ١ ص٣٤٠ .
(٢) نفسه ص٣٣٤ . وأبو عيسى هو جبريل بن بختيشوع النصرانى كان طبيبا للرشيد .
(٣) شاعر أديب فى أيام المعتصم - تاريخ بغداد جـ١٠ ص٣٦ .
(٤) نفسه ص٣٧٢ .

ويقول ابن المعتز فى ذكريات لياليه ببعض الأديار :

يالياليَّ بالمطيرة والكَر ... خ ودَيْر السُّوسيِّ بالله عودى

كنت عندى أنموذجات من الجنة لكنها بغير خلود

أشرب الراح وهى تشرب عقلى ... وعلى ذاك كان قتل الوليد[1]

ويعيش الحسين بن الضحاك مع ذكريات دير مديان وهو على نهر كرخايا ببغداد فيقول :

يادَيْر مِدْيان لا عُرِّيتَ من سكن ... ما هجت من سقم يا دير مديانا

هل عند قسك من علم فيخبرنى ... أن كيف يُسْعد وجهُ الصبر من خانا

سقيا ورعيا لكرخايا وساكنه ... بين الجُنَيْنَة والرُّوْحاء من كانا[2]

أما عن السياسة الخارجية فقد كانت هناك دولة أموية أسست فى الأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الملقب بالداخل وكانت هذه أول بلاد تقتطع من الخلافة الإسلامية الكبرى بالمشرق ومن غير شك فقد كانت هذه الدولة الأموية المؤسسة حديثا بالأندلس مثار قلق للخلفاء العباسيين ومظهر ضعف للحكم العباسى ، ولعل كثرة الأحداث الداخلية صرفت همم العباسيين عن الوقوف بالمرصاد إزاء هذا التحرك الأموى الجرىء فى وقت قضى فيه تماما على دولتهم بالمشرق . وبقيام دولة للأمويين فى الأندلس أتاحوا للأندلس أن تتبوأ مكانها من تاريخ الحركة الأدبية فالأمويون عرب مطبوعون على البلاغة والفصاحة والبيان ولكثير منهم ملكات أدبية تسلكهم فى عداد الشعراء أو الخطباء أو الكتاب وهم

(١) الديارات للشابشتى ص٩٦ ، أشعار أولاد الخلفاء ص١٨٧ .

(٢) الديارات للشابشتى ص٣٢ ، مسالك الأبصار ص٢٧٨ .

يعرفون حق المعرفة ما للأدب من فضل فى الدفاع عن الدولة والذود عنها والدعوة إلى مبادئها وتصوير حضارتها والإشادة بأمجادها . ولذلك سلكوا مسالك العباسيين واقتفوا آثارهم فاحتضنوا الأدباء وأجزلوا لهم العطاء وفتحوا أمامهم أبواب الوزارة والمناصب العليا فى الدولة فأثاروا الهمم وحفزوها على الإتقان والتجويد ، بل إنهم قد حاولوا اجتذاب بعض علماء الأدب من المشرق وأغروا بالأموال الكثيرة لاستيراد الكتب والمؤلفات الأدبية وإظهارها بالأندلس قبل أن تظهر بالمشرق .. وقد ذكروا أن الحكم المستنصر أرسل إلى أبى الفرج الأصبهانى بألف دينار لقاء أن تكون له النسخة الأولى من كتاب الأغانى[1] وقد تأثر الأندلسيون بالمشارقة تأثرا كبيرا فكثير من شعرائهم يتجه إلى معارضة شعراء المشرق معارضة تامة فى الوزن والقافية والمذهب والاتجاه والمعانى والأساليب كمعارضات ابن دراج لأبى نواس وابن زيدون للبحترى وابن خفاجة للمتنبى .[2] وهم فى تأليفهم الأدبى يحذون حذو المشارقة فابن عبد ربه فى العقد الفريد يحذو حذو ابن قتيبة فى عيون الأخبار وابن بسام فى الذخيرة يحذو حذو الثعالبى فى يتيمة الدهر " وابن شهيد فى رسالة التوابع والزوابع يحذو حذو أبى العلاء المعرى فى رسالة الغفران وابن زيدون فى رسالته الهزلية يحذو حذو الجاحظ فى رسالة التربيع والتدوير " وهكذا كان التأثر بالمناهج الأدبية العامة والمذاهب الفنية المتعددة ... .

وكان من النظام المتبع فى الخلافة العباسية إرسال الجيوش لغزو الروم فى الصيف وتسمى بالصوائف وكانت الحروب والإغارات وحملات التأديب تتوالى بين الطرفين ليس لغرض الفتح ولكن لتحقيق أهداف محدودة ثم أخذ الصراع يعنف

---

(١) الأدب العربى فى الأندلس لأحمد الشعروای ص٦ ط : الأزهر .
(٢) نفسه ص٩ .

ويشتد بعد ذلك وكانت هناك مواقع مشهورة وفتوح جليلة فى بلاد الروم . وكانت المعاهدات والمصالحات قصيرة العمر فلم يتحقق بها الاستقرار وكانت الثغور دائما مثار صراع ونزاع ... وقد حقق كثير من خلفاء بنى العباس انتصارات هائلة على الروم كانت مثار إعجاب وتقدير ومبعث فخر وتمجيد . وكانت غزواتهم للروم معارك حربية رهيبة لها وزنها وقدرها فى التاريخ العسكرى للأمة العربية الإسلامية وقد امتدت سلسلة المعارك والحروب حتى شملت العصر العباسى كله . وقد توغلوا بها شمالا وجنوبا وشرقا وغربا حيثما تستدعى الحال ويتطلب الموقف : ففى عهد الرشيد مثلا كانت قوة المسلمين ظاهرة ظهورا بينا على الروم لما كان يقوم به الرشيد بنفسه من الغزو المتوالى ومعه عظماء القواد وكبار رجال الدولة من عرب وموال وخراسانية .[1] وفى عهد الرشيد أيضا كانت هناك علاقات مع أوربا إذ أرسل شارلمان ملك فرنسا سفراء يستجلبون رضا هارون الرشيد وقد فاز شارلمان برضا الرشيد وتوثقت العلاقات بينهما وكان لشارلمان غرضه من مصافاة الرشيد إذ يتمكن بذلك من تحقيق الغلبة على الدولة الأموية بالأندلس وأن تعلو درجته درجة نقفور ملك القسطنطينية وأن يفيد من الازدهار الحضارى فى الدولة الإسلامية إذ أن أوربا فى ذلك الوقت كانت مهد جهالة وبؤرة ظلام ومنبع فوضى وتخلف .[2] وفى عهد المعتصم كانت الضربة الكبرى الموجهة إلى الروم فى أنقرة وعمورية والتى ارتفع بها اسم المعتصم فى الآفاق بأسا وشجاعة وإقداما ... وحين هاجت الخوارج بأفريقيا بزعامة أبى الخطاب أرسل لهم أبو جعفر المنصور الأشعث بن عقبة فقاتل الخوارج وهزمهم وسير المنصور عمر بن حفص بن عثمان بن قبيضة بن أبى صفرة وبعد قتل عمر وجه يزيد بن حاتم بن قبيضة ووجه الرشيد روح بن حاتم بن قبيضة

(١) تاريخ الأمم الإسلامية – الدولة العباسية ص١٣٢ .
(٢) المرجع السابق ص١٣٣ .

الأزدى وولى الرشيد هرثمة بن أعين الهاشمى وولى أيضا ابراهيم بن الأغلب وولى المأمون أبا العباس عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب كما ولى زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب وولى المعتصم أبا عقال الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب ... .[1] وكان للأدب دوره فى مجال الإشادة بالبطولة وتمجيد الأبطال ووصف المعارك والحروب والجيوش المتحاربة وإلهاب الحماس وإثارة الهمم ورثاء الشهداء والدعوة إلى مزيد من القوة وإعداد العدة لتحقيق النصر وكان من ذلك كله أدب خاص متميز هو أدب المقاومة بما يمثله من صدق العاطفة وعمق الانفعال ونبل الغرض وبراعة العرض وقوة الأسلوب وجودة التعبير وروعة التعبير ومتانة الارتباط بالنزعة الدينية والأمجاد العربية والإسلامية .

وخير ما يصور هذا اللون من الأدب قصيدة أبى تمام فى وصف وقعة عمورية ومطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حدّه الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والرّيب
وفيها يقول :
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به ... نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له ... وتبرز الأرض فى أثوابها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جدّ بنى الإسلام فى صعد ... والمشركين ودار الشرك فى صبب[2]

---

(١) خاتمة فى ذكر عمال بنى العباس بأفريقية ومن دخلها من عمالهم من الورقة (١) الى الورقة (١١) مخطوطة بمكتبة آداب الإسكندرية ٣٧٧م .
(٢) ديوان أبى تمام ص ٧ وما بعدها ط : القاهرة .

وتعد هذه القصيدة من أجود ما قيل فى موقعة عربية ففى مخطوطة لطايف أخبار الأول أن المعتصم منعه المنجمون وقالوا له إن الطالع نحس فقال هو نحس عليهم لا علينا وسافر من يومه وقد مدحه الشعراء بقصائد طنانة وأحسن ما قيل قصيدة أبى تمام التى أولها : السيف أصدق أنباء من الكتب .[1] وقد امتدت هذه الحروب بعد ذلك فشملت التتار والصليبيين فى أخريات العصر وكان الأدب أيضا خير معبر عن هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ الأمة العربية والدولة العباسية بالقصيدة الشعرية والخطبة النثرية والرسالة الموجهة والقصة المؤلفة ... .

وحين ضعفت شوكة الخلافة وسادت الفوضى نتيجة ازدياد نفوذ العناصر الأجنبية ومراكز القوى تدهورت الأحوال فى الخارج وتقاعس أولو الأمر عن حماية الثغور كما حدث فى عهد المستعين الذى أربكته الأحوال الداخلية وألهته عن ثغور المسلمين فلم يوجه لها عسكرا ولم يمنع شيئا ... هكذا كانت الأحوال السياسية فى الدولة العباسية بين مد وجزر وقوة وضعف وخير وشر وعدل وظلم وأمن وخوف وطمأنينة وقلق ونعيم وبؤس ترتفع الموجة وتعلو بأناس ويجرف التيار آخرين وتلك الأيام نداولها بين الناس والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ... .

وقد امتدت فترة الخلافة العباسية من سنة ١٣٢هـ إلى سنة ٦٥٦هـ واصطلح على تقسيم هذه الفترة الممتدة إلى عصور مختلفة تعددت فيها الآراء واختلفت وجهات النظر لكننى أشير إلى تقسيم لعله يتمشى مع الأحوال السياسية للخلافة العباسية فى بغداد :

---

(١) لطايف أخبار الأول فيمن تصرف فى مصر من الدول الورقة (٦٣) مخطوطة بمكتبة آداب الإسكندرية رقم ٧٢٥٥ب .

العصر العباسى الأول ١٣٢ - ٢٣٢هـ ويبدأ من قيام الدولة العباسية الى بداية خلافة المتوكل ويمتاز هذا العصر بهيبة الخلافة وعظمة الخلفاء ونفوذ الفرس .

العصر العباسى الثانى ٢٣٢ - ٣٣٤هـ ويبدأ من خلافة المتوكل الذى استبد به الأتراك وقتلوه وينتهى بتغلب آل بويه وسقوط بغداد فى أيديهم ، ويتسم هذا العصر بضعف الخلافة وضياع هيبة الخلفاء ونفوذ الأتراك وسوء الأحوال عموما فى الدولة .

العصر العباسى الثالث ٣٣٤ - ٤٤٧هـ وهو عصر الدولة البويهية التى كان شعارها القهر بالغلبة والبأس مع الخلفاء العباسيين كما كان شعار البويهيين بعضهم مع بعض إلى أن اجتاح ملكهم السلاجقة ومحوا آثارهم من بغداد سنة ٤٤٧هـ .

العصر العباسى الرابع ٤٤٧ - ٦٥٦هـ ويبدأ من سقوط بغداد فى أيدى السلاجقة وينتهى بسقوطها مرة أخرى فى أيدى التتار[١] وقد خلصت للسلاجقة دار الخلافة ومكن لهم فيها فترة أربت على القرنين تفرعت فيها شجرتهم إلى فروع انبسط ظلها على أغلب بقاع الإسلام ولم يستعص على سيوفهم فى النهاية إلا مصر والشام فقد بقيتا فى حوزة الفاطميين ثم الأيوبيين من بعدهم . وهؤلاء السلاجقة قد تفرعوا إلى فروع أكبرها السلاجقة العظام وهناك سلاجقة كرمان وسلاجقة سوريا وسلاجقة العراق وكردستان وسلاجقة الروم .

وكان السلاجقة يعتنقون المذهب السنى إلا أنهم كانوا على جانب كبير من الاعتدال وقد استردّ خلفاء بنى العباس فى عهدهم كثيرا مما كانوا يتمتعون به من

---

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين - تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان - تاريخ الأدب العربى للزيات .

سلطة سياسية كانت قد سلبت منهم فى عهد البويهيين وفى أيامهم راجت سوق الآداب والعلوم فى مصر والشام ووصل الحكم الإسلامى بصفة دائمة إلى بلاد الأناضول .[1] ولكن حال الشعر والشعراء كانت على جملتها فى عهد البويهيين خيرا منها فى عهد السلجوقيين فقد كان للبويهيين ثقافة عربية واسعة أكسبتهم ذوقا أدبيا كان له أثره فى النهضة الأدبية على عهدهم واجتذاب الشعراء إليهم حيثما كانوا فى بغداد والرى وأصبهان وشيراز وتحولت قصورهم ومجالسهم إلى منتديات أدبية يغشاها الفحول من أعلام الشعراء والكتاب والنقاد ... وبعد أن دالت دولة البويهيين والحمدانيين وقامت دولة السلاجقة صوحت رياض الشعر فى العراق وفارس وبقى الروح والريحان فى مصر والشام على عهد الفاطميين والأيوبيين .

على أن ما يعنينى فى هذا البحث هو الشعر العباسى فى القرنين الثانى والثالث الهجريين بغض النظر عن أى اعتبار آخر ... وبعد ذلك كله أستطيع أن أقول إن قيام الحكم العباسى كان ثورة وليس انقلابا كما يرى بعض الباحثين[2] .... كان ثورة فى الفكر السياسى وأساليب الحكم كما كان ثورة أيضا على كثير من النظم والتقاليد والعادات وكان قيام الحكم العباسى كذلك يعنى ثورة علمية وثقافية وفكرية واجتماعية واقتصادية – ثورة راسخة عميقة الجذور ممتدة الآفاق متعددة الاتجاهات خطيرة الآثار والنتائج . نعم لم يكن قيام الحكم العباسى انقلابا ينتهى بانتهاء عوامله وأسبابه وبزول بزوال أربابه بل كان بحق ثورة كبرى شاملة بكل ما تعنيه الكلمة من خطورة وجلال .

✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪ ✪

(١) محاضرات فى التاريخ الإسلامى (لزكى غيث وإبراهيم شعوط ومحمود زيادة وأحمد مصباح) ص٢١٢ – ٢١٣ .

(٢) محمد مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى ص٢٥ .